عن البداية أعنى القعود نهيٌ عن كلّ ما يترتّب على ذلك حتّى النّهاية . ومن البيّن كذلك أنّ منتهى ما عند الكافرين ، ويلحق بهم المنافقون ، أقوالٌ لا معنى تحتها ، ولا فائدة وراءها ، ولا خير يرجى منها ، . بل ليس معها سوى الشّرور والآثام .

والآية الكريمة التّالية تبيّن مسئوليّة كلّ إنسانٍ عمّا يأتى من خيرٍ أو شرّ ، وبذلك هي تتمشّى مع مثل قوله تعالى[1] : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ قال تعالى : ﴿ وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾ والمعنى أنّه ليس على المؤمنين الّذين يتّقون الله تعالى حقّ تقاته ، ويتّقونه جلّ وعلا ما استطاعوا ، شيءٌ من وزر ولا إثم ، من حساب الله تعالى أولئك الخائضين فى آيات الله تعالى اللاّعبين . ولكنّ الله سبحانه وتعالى يصرّف الآيات ويبيّن الحجج تذكرةً وموعظةً لعلّ أولئك اللاّهين العابثين يتّقون النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة بمعنى الأصنام وذلك باعتناق دين الإسلام واتّباع خير الأنام . وكيف يتّقى الخائضون النّار ؟ بالكفّ عن الخوض واللّهو والعبث واتّخاذ آيات الله تعالى هزوا . ويلاحظ بشأن تقوى هؤلاء الخائضين أنّها تمثّل أولى درجات التّقوى وأدنى درجاتها قربًا من الوقاية فى المحسوسات . إنّ من أراد أن يتّقي اذى النّار فى المحسوسات استعمل الوقاية . وإنّ من أراد أن يتّقي نار جهنّم فرّ إلى التّقوى . وهذه التّقوى درجات . وهي فى حقّ الخائضين فى آيات الله تعالى تبدأ بترك الخوض فى الباطل والتّحوّل إلى الحقّ باعتناق دين الإسلام . ويظلّ المسلم تلازمه التّقوى وهو يمارس أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان السّتّة حتّى يصل إلى مرتبة التّقوى فى أعلى درجاتها ، وهي مرتبةٌ تقارب درجة الإحسان إن لم تكن درجة الإحسان ذاتها ، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . وهكذا يتجلّى البون الشّاسع بين أولى درجات التّقوى وآخرها وأسماها واسناها . والمعروف أنّ القول : ﴿ وما على الّذين يتّقون ﴾ يشمل المؤمنين الّذين بلغوا فعلاً مرتبة الإحسان بفضل

---

(١) سورة فاطر ١٨ .

الله تعالى أو الّذين قد شارفوا الوصول إليها . وليس بخافٍ أنّ ثمّة شيئًا من شبهٍ بين القول هنا : ﴿ وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيء ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة الثّانية والخمسين من السّورة الكريمة : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ إنّ كلّ واحدٍ مسئولٌ وحده عمّا يأتى من خيرٍ أو شرّ . قال تعالى : ﴿ وإذا رأيتَ الّذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره . وإمّا ينسينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذّكرى مع القوم الظّالمين . وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾.

وبشأن الّذين يصرّون على الخوض والاستهزاء والتكذيب لا يملك المصطفى ﷺ، فضلاً عن سواه ، سوى تركهم وباطلهم والاستمرار فى التّذكير والوعظ بهذا الكتاب العزيز . وإلى هذه المعاني أشارت .

الآيـــة رقـــم (٧٠)

قال تعالى : ﴿ وذر الّذين اتّخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرّتهم الحياة الدّنيا وذكّر به أن تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تَعْدِلْ كلَّ عدلٍ لا يُؤْخَذْ منها . أولئك الّذين أُبْسِلوا بما كسبوا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يترك الّذين اتّخذوا دين الإسلام الّذى دعاهم إليه محمّد بن عبد الله ﷺ وجعلوه لعبًا ولهوًا ، عبثًا واستهزاءً ، وأن يهجرهم هجرًا جميلاً ، وذلك قبل الأمر بالقتال الذى أذن الله تعالى به بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

وفى الوقت الّذى كان من المشركين هذا الإدبار عن الإسلام والإعراض عن الآخرة كان منهم الإقبال على الدّنيا الّتى فتنتهم بزهرتها ، وغرّتهم بزخرفها ، وخدعتهم بزينتها ، وجعلوا بهرجها منتهى همّهم ، وزائفها غاية أمنيتهم . إنّ

إقبالهم على الحياة الدّنيا بمقدار إدبارهم عن الآخرة ، وإنّ إقبالهم على الشّرك بمقدار إدبارهم عن الإسلام .

ولمّا كان على المصطفى ﷺ البلاغ وحده ، وكان القرآن الكريم أكبر جيوش المصطفى ﷺ فى الدّعوة إلى الله تعالى فقد أمرت الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يستمرّ فى التّذكير والوعظ بهذا القرآن الكريم لئلاّ تُسْلَمَ نفسٌ إلى الهلاك بسبب ما كسبت من سوء ، ولئلاّ تكون تلك النّفس رهينة أعمالها السّيّئة وحبيسة نواياها الخبيثة ، فى يوم الجزاء ، يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود .

إنّ كلّ نفسٍ أسلمت نفسها للهلاك بسبب إشراكها مع الله تعالى سواه وكانت رهينة أعمالها السّيّئة وضحيّة نواياها الخبيثة ليس لها يوم القيامة من دون الله تعالى الّذى لم تفرده بالعبادة بل أشركت معه سواه ، ليس لها فى ذلك اليوم العظيم وليٌّ ولا شفيعٌ ولا يقبل منها مبدأ الفداء أصلاً ولو تقدّمت بأيّ فداء .

وانظر إلى ترتيب الآية الكريمة العجيب للوليّ والشّفيع والفداء : ﴿ ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تَعْدِل كلّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها ﴾ إنّ الوليّ هو الّذى يتولّى رعاية المصالح لمولاه ، فهو بمنزلة الوكيل الّذى يتصرّف فى الأمور تصرّف الأصيل . وقد جرت العادة أن يلجأ الوليّ إلى وليّه والموكّل إلى وكيله . إنّ الكافرين قد عبدوا الآلهة المزعومة كي تقرّبهم إلى الله تعالى زلفى ، وقد خذلتهم وتخلّت عنهم بل كانت عليهم ضدًّا ولهم عدوّا . وبما أنّ العادة قد جرت ، فى حال خِذْلان الوليّ ، أن يتمّ اللّجوء إلى الشّفيع الّذي يجعل طالب الشّفاعة زوجًا بعد أن كان فردًا أو وترا، فقد تحوّلت الآية الكريمة بعد الوليّ إلى الشّفيع . ولكنّ هذا الشّفيع قد خذل الكافرين كما خذلهم الوليّ من قبل ، بل كما خذلتهم أنفسهم ابتداءً . وبما أنّ العادة جرت بعد عدم وجود الشّفيع أن يتمّ اللّجوء إلى المال بقصد تقديمه فداءً للعذاب مهما يكن الطّلب كبيرًا . ولكن أين المال وقد جاءت الخلائق الله تعالى كما خلقهم جلّ وعلا أوّل مرّة حفاةً عراةً غُرْلاً غير مختونين . بل أين مبدأ الفداء . إنّه مرفوضٌ

أساسًا مهما يكن المال المقدّم كبيرًا والفداء المبذول عظيما . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ النّفس الّتى أُسْلِمَتْ للهلكة بسبب سوء أعمالها فى الأولى لو أنّها قدّمت كلّ فداءٍ فإنّه لا يُقْبَل ولا يُؤْخذ منها . قال تعالى : ﴿ وذكّر به أن تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تَعْدِل كلَّ عدلٍ لا يؤخذ منها ﴾ وقد جاء فى هذا المعنى خطابًا لبنى إسرائيل قوله تعالى فى سورة البقرة[1] : ﴿ واتّقوا يومًا لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقْبَل منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم يُنْصَرون ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ واتّقوا يومًا لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقْبَلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم يُنْصَرون ﴾ .

إنّ أولئك الّذين ليس لهم يوم القيامة وليٌّ من دون الله تعالى ولا شفيعٌ ولا يقبل منهم الفداء لتورّطهم فى الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه ، إنّ أولئك هم الّذين أُسْلِمَت نفوسهم للهلاك فعلاً بسبب ما اكتسبوا فى الحياة الدّنيا من ذنوبٍ وآثام . وإنّ أولئك لهم نوعان بارزان من العذاب ، باطنيّ وظاهريّ . أمّا الباطنيّ فيمثّله الشرّاب من الحميم ، والماء الّذى بلغ نهاية الحرارة وغاية الغليان ، وأمّا الظّاهريّ فإنّه العذاب الأليم مطلقًا فى نار جهنّم الّتى وقودها النّاس والحجارة بمعنى الأصنام الّتى كان يعبدها أولئك الكافرون . إنّهم بسبب كفرهم أساسًا وإصرارهم على الكفر والاستهزاء والصّدّ عن سبيل الله تعالى والدّعوة إلى الكفر وإلى الارتداد عن دين الإسلام قد أوقعوا نفوسهم فى الهلاك الأكيد ، واستحقّوا العذاب الشّديد . قال تعالى : ﴿ وذر الّذين اتّخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرّتهم الحياة الدّنيا وذكّر به أن تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تَعْدل كلّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها . أولئك الّذين أُبْسِلوا بما كسبوا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون ﴾ .

والعجيب فى أمر أولئك الكافرين أنّهم يتجاوزون مرحلة الكفر إلى مرحلة الصّدّ

---

(١) الآية ٤٨ .

(٢) سورة البقرة ١٢٣ .

عن سبيل الله تعالى بل الدّعوة إلى الارتداد عن دين الإسلام والعودة إلى الشّرك . وفي هذه المعاني تحدّثت .

الآيـــة رقـــم (٧١)

قال تعالى : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ونُردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالّذى استهوته الشّياطين فى الأرض حيرانَ لـه أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إنّ هدى الله هو الهدى وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لربّ العالمين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، كما تأمر كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة ، بأن يقول لأولئك الكافرين ، المرتدّين عن دين الإسلام والكافرين بطبعهم ، وأن يسأل فى إنكار أولئك الّذين بلغت بهم الوقاحة والقباحة إلى الحدّ الّذى يدعون معه المسلمين إلى الارتداد عن دين الإسلام إلى دين الشرك وعبادة الأصنام : أنعبد من دون الله تعالى ما لا ينفعنا لو عبدناه ولا يضرّنا لو هجرناه . أتريدون منّا أن نُردّ على أعقابنا ، ونعود القهقرى إلى الشّرك ، بعد إذ هدانا الله سبحانه وتعالى إلى دين الإسلام ، وأبصرنا نور الصّراط المستقيم ، وعرفنا المواطئ الصّحيحة لأقدامنا فى الطّريق القويم . إنّ حال من يرتدّ على عقبيه ، ويسير القهقرى باتّجاه مؤخّر رِجله[1] لا يرى طريقًا ، ولا يهتدى سبيلاً ، فى طريقه إلى شفير الهاوية ، وشفا الجرف الّذى ينهار به ـ والعياذ بالله ـ فى نار جهنّم ، يشبه حال ذلك الّذى استهوته الشّياطين فى الأرض ، وحملته على اتّباع الهوى[2] وطاعة النّفس فى الميل إلى الشّهوة[3] فتعاون على ضلاله والقذف به فى مهاوى الرّدى الشّيطان البيّن العداوة له ، والنّفس الأمّارة بالسّوء ، فغدا فى الأرض حيران لا يعرف طريق

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عقب » ٣٤٠ .
(٢ و٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « هوى » ٥٤٨ .

السّلامة ، ولا يهتدى سبيل النّجاة ، ولا يقوى على اتّخاذ القرار السّليم بتغيير الاتّجاه والمضيّ فى المسار الصّحيح . لقد غدا ذلك الحيران بمثابة القطعة من الحديد العشوائيّة الحركة بسبب الشّدّ والجذب لها من جانبيها بفعل قطعتي المغناطيس المتساويتي القوّة . وإنّما تساوت القوّتان فى حقّ الحيران ، بل تفوّقت ـ أخيرًا ـ قوّة الشّرّ على الخير بسبب نفسه الشّرّيرة الّتى كانت أداةً طيّعةً فى يد الشّيطان الرّجيم . وما هي القوّة الخيّرة الأخرى الّتى تدعو ذلك الحيران إلى أن يدخل فى دين الإسلام وإلى أن يعود إليه . إنّهم أصحابه المسلمون وخلّانه المهتدون الّذين يدعونه إلى الهدى قائلين له فى حماسةٍ وصدق ائتنا ، وهلمّ إلينا ، وانضمّ إلى صفوفنا ، والحق بركب الهداة المهتدين الّذين دينهم الإسلام ، ومنهجهم القرآن ، وإمامهم خير الأنام .

وانظر إلى الدّور العظيم لجملة : ﴿ ائتنا ﴾ فى القول : ﴿ حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ والمعروف أنّ جملة ﴿ أتى ﴾ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ والنّفسيّ . ونستطيع أن نفهم أنّ البعد بين الدّاعين والمدعوّ معنويّ ونفسيّ أوّلاً ، مكانيّ آخرًا . إنّ طريق الدّاعين مستقيم وإنّ طريق المدعوّ معوجّ ، إنّ اتّجاه الدّاعين إلى الأمام على بصيرة وإنّ اتّجاه المدعوّ إلى الوراء على عمى . كيف يلتقى إيمانٌ وكفر ، وكيف يتقابل من يمشى على بصيرةٍ من ربّه ومن يرتدّ القهقرى تقوده النّفس الأمّارة بالسّوء ويتخبّطه الشّيطان من المسّ . إنّ الشّقّة لبعيدةٌ بين الدّاعين والمدعوّ ، وإنّ الهوّة لسحيقة ، وإنّ الفجوة تزداد اتّساعًا إن لم يلطف الله تعالى ويتدارك المدعوّ إلى الهدى برحمته جلّ وعلا الّتى وسعت كلّ شيء .

ونستطيع أن نفهم من هذا القول الّذى يلقّنه ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ ابتداءً، وكلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك : ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ هذا الحيران أخذ يجادل بالباطل ، ويدافع عن الضّلال ، ويدعو إلى الشّرك ، ويصدّ عن دين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى من أيّ عبدٍ دينًا

سواه . والمعنى قل يا محمّد لدعاة الضّلالة ، وقل أيّها المسلم ، يا من ذقت حلاوة الإيمان ، ونَعِمْت بدين الإسلام : إنّ هدى الله تعالى الّذى بعث به محمّد بن عبد الله ﷺ هو الهدى : ﴿ إنّ الدّين عند الله الإسلام ﴾(١) إنّ الدّين المتقبّل عند الله تعالى هو دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٢) لقد أُمِرْنا بأن نُسْلِم لله تعالى ربّ العالمين ، وأن نخضع له تعالى ونذلّ ، وأن نفرده جلّ وعلا بالعبادة ، وأن نخلص من الشّرك ، كما أُمِرْنا بأن نقيم الصّلاة عماد الدّين وأهمّ أركان الإسلام الخمسة بعد الشّهادتين وأن نتّقي الله تعالى الّذى نحشر إليه يوم القيامة حقّ التّقوى بأن نحقّق كلّ أركان الإسلام والإيمان إلى أن نصل إلى مرتبة الإحسان الوجه الآخر للتّقوى . وإنّ هذه الأوامر قد أفصحت بها .

الآيــة رقــم (٧٢)

قال تعالى : ﴿ وأن أقيموا الصّلاة واتّقوه . وهو الّذى إليه تحشرون ﴾ .

إنّ معنى القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وأمرنا لنسلم لربّ العالمين ﴾ أسلموا لله ربّ العالمين . وبذلك يكون المعنى : اسلموا لله ربّ العالمين وأقيموا الصّلاة واتّقوه جلّ وعلا . وإنّ معنى القول فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وأن أقيموا الصّلاة واتّقواه ﴾ وأمرنا بأن نقيم الصّلاة وأن نتّقي الله تعالى : وبذلك يكون المعنى: وأمرنا لنسلم لربّ العالمين وبإقام الصّلاة وبتقوى الله تعالى .

وهكذا يتبيّن أنّ الإسلام علمٌ وعمل ، إيمانٌ بالجَنان (القلب) وإسلامٌ بالأركان (الجوارح) كما يتبيّن مسئوليّة كلّ إنسانٍ عمّا أتى من خيرٍ أو شرّ . إنّ الحيران سواءٌ ترك حيرته أو استمرّ فيها وفى ضلاله فإنّ على داعيه أن يستمرّ على المحجّة

---

(١) سورة آل عمران ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ٨٥ .

البيضاء ، وأن يجمع بين إعلان الإسلام وإعطاء الدّليل على ذلك بتطبيق أركان الإسلام والإيمان حتّى يصل بفضل الله تعالى إلى مرتبة الإحسان ذات الرّكن الواحد بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، وقد عرفنا بأنّ التقوى تكاد تكون الإحسان ذاته أو الوجه الآخر له .

ويفهم من القول : ﴿ وهو الّذى إليه تحشرون ﴾ أنّ الحياة الأولى حياة العمل والحرث وبذر البذور ، وأنّ الحياة الأخرى الّتى نحشر فيها لربّ العالمين حياة الجزاء وجني الثّمار . ولا تكون الثّمار إلاّ من جنس البذور ، ولا يكون الجزاء فى الآخرة إلاّ من جنس العمل فى الأولى . وهكذا تتلاحم الحياتان ، الأولى والآخرة ، فى نفس المسلم لله ربّ العالمين . وإنّ الآية الكريمة التّالية والأخيرة فى القسم تؤكّد هذا التّلاحم بين المبدأ والمعاد ، كما تؤكّد التّلاحم المعنويّ بين الآيات فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٣)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى خلق السّماواتِ والأرضَ بالحقّ . ويوم يقول كن فيكون قوله الحقُّ . وله الملك يوم ينفخ فى الصّور . عالم الغيب والشّهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

ويبدو أنّ من أحسن الوسائل لفهم معنى الآية الكريمة أن نتبيّن الرّوابط اللّفظيّة والمعنويّة بينها وبين ما سبقها من آية أو آيات . واوّل ما يلاحظ التّشابه فى الصّياغة بين صدر الآية الكريمة وبين عجز الآية الكريمة السّابقة حيث إنّ كلاً منهما يبدأ بالقول : ﴿ وهو ﴾ قال تعالى : ﴿ وهو الّذى إليه تحشرون . وهو الّذى خلق السّماوات والأرض بالحقّ ﴾ ومن البيّن جمع السّياق فى نسق بين الأولى متمثّلةً فى خلق الله سبحانه وتعالى السّماوات والأرض ، والمعروف أنّ السّماوات احتاجت يومين ، وأنّ الأرض احتاج خلقها يومين واحتاج تهيئتها لسُكنى الإنسان يومين

آخرين ، من البيّن جمع السّياق بين الأولى وبين الآخرة يوم يحشر الرّحمن المتّقين إليه وفدا ، ويسوق المجرمين وِرْدًا أي عِطاشا إلى جهنّم وبئس المصير .

وإذا كان صدر الآية الكريمة يتحدّث عن المبدأ ، عن خلق السّماوات والأرض ، فإنّ أكثر عجزها يتحدّث عن المعاد ، عن يوم القيامة وملابساته .

أما وقد تبيّنا العلاقة بين صدر الآية الكريمة وعجز الآية الكريمة السّابقة لفظًا لابتداء كلٍّ منهما بالقول : ﴿ وهو ﴾ ومعنًى للجمع في نسقٍ بالتّضادّ بين المبدأ والمعاد ، فإنّا نودّ أن نحاول الرّبط معنويًّا بين بقيّة كلٍّ من الآيتين الكريمتين ، أعني صدر الآية الكريمة السّابقة وعجز هذه الآية الكريمة اللاّحقة . وسوف يتبيّن استقامة المعنى وتلاحم جزئيّاته في الآيتين الكريمتين . لقد عرفنا أنّ القول : ﴿ وأن أقيموا الصّلاة واتقوه ﴾ معطوفٌ على سابقه في عجز الآية الكريمة السّابقة وأنّ المعنى : وأمرنا لنسلم لربّ العالمين وبإقام الصّلاة وتقوى الله تعالى . فلنربط هذه المعاني بالقول في الآية الكريمة الّتي نحن بصددها : ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ إنّ المعاني في هذه الحال ستكون : وامرنا لنسلم لربّ العالمين ، وبإقام الصّلاة وتقوى الله تعالى ، وباتّقاء يوم القيامة يوم يقول الحقّ جلّ وعلا له : كن فيكون . وهكذا يتبيّن بفضل الله تعالى تلاحم المعاني في الآيات الكريمات[1] .

ومعنى ﴿ قوله الحق ﴾ قول الله تعالى ليوم القيامة كن فيكون هو القول الحقّ من الله تعالى الحقّ .

ومعروفٌ أن ثمّة نفختين اثنتين في الصّور لإسرافيل عليه السّلام . النّفخة الأولى هي الّتي تميت بإرادة الله تعالى الخلائق إلاّ من شاء ربّك من الملائكة والحور والولدان . وإلى هذه النّفخة أشارت الآية الكريمة في القول : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ والنّفخة الأخرى هي الّتي تُحْيِي بإرادة الله تعالى الخلائق لفصل الحساب والجزاء ، الثّواب أو العقاب . وإلى هذه النّفخة أشارت الآية الكريمة في

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢/١٤٥ .

القول : ﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصّور عالم الغيب والشّهادة وهو الحكيم الخبير﴾ وقد أشار إلى هاتين النّفختين ـ على سبيل المثال ـ قوله تعالى فى سورة الزّمر(١): ﴿ ونُفِخَ فى الصّور فَصَعِق من فى السّماوات ومن فى الأرض إلاّ من شاء الله ثمّ نفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ﴾ وفى ضوء هذا المعنى يصحّ فى أثناء التّلاوة أن نقف على ﴿ بالحقّ ﴾ وعلى ﴿ فيكون ﴾ وعلى ﴿ الحقّ ﴾ : ﴿ وهو الّذى خلق السّماوات والأرض بالحقّ . ويوم يقول كن فيكون . قوله الحقّ ﴾ .

وإنّ التّلاحم المعنويّ فى القول : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ جعل بعض العلماء يذهب إلى أنّ لفظ يوم ظرف زمان منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم ، وإلى أنّ لفظ قول من : ﴿ قوله الحقّ ﴾ مبتدأ مؤخّر(٢) ومنهم من ذهب إلى أنّ التّقدير : واذكر يوم يقول(٣) .

والحقيقة أنّا نميل أكثر إلى الرّأي الأوّل .

وإنّ ربّ العزّة الّذى خلق السّماوات والأرض وما فيهنّ له وحده لا شريك له الملك ، بمعنى الخلق والأمر والتّدبير ، وله جلّ وعلا الملك حينما يقول ليوم القيامة كن فيكون ، وله جلّ وعلا الملك يوم ينفخ فى الصّور . وقد جاء فى سورة غافر فى هذا المعنى على لسان الحقّ جلّ وعلا القول(٤) : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليوم . لله الواحد القهّار ﴾ .

وتصف الآية الكريمة ربّ العزّة بأنّه جلّ وعلا عالم الغيب والشّهادة ، والمراد بالغيب ما غاب عنّا ، والمراد بالشّهادة ما شاهدناه حسًّا ومعنى . ومن الغيب يوم القيامة ، ومن الشّهادة هذه الحياة الأولى . ومن البيّن الاتّفاق على عالم الشّهادة والاختلاف على عالم الغيب الّذى يحتاج من المسلم إلى الإيقان كي يؤمن به على نحو ما جاء فى الآية الكريمة الرّابعة من سورة البقرة فى صفات المتّقين : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

---

(١) الآية ٦٨ .
(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤/١٥٤ .
(٣) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٧/١٥٦ والجلالين .
(٤) سورة غافر ١٦ .

وكأنّ تقديم ذكر عالم الغيب على عالم الشّهادة بقصد التّنبيه على هذه الملابسات الخاصّة المتعلّقة بعالم الغيب بالقياس إلى عالم الشّهادة ، ويبدو وراء ذلك تقديم صفة الحكيم على الخبير وكأنّه ينبّه كذلك إلى ارتباط الصّفة الأولى : ﴿ الحكيم ﴾ بعالم الغيب بدرجةٍ أكبر ، ومن الغيب يوم القيامة بملابساته من جنّة ونارٍ وحسابٍ وجزاءٍ وما إلى ذلك من غيبٍ لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، وكأنّ صفة الحكمة تشتمل على الخبرة الّتى تشتمل بدورها على العلم . ويبدو وراء ذلك أيضًا تأخير صفة الخبير عن الحكيم وكأنّه ينبه إلى ارتباط هذه الصّفة بعالم الشّهادة بدرجةٍ أكبر . وقد أشرنا إلى أنّ صفة الخبير تتضمّن العلم ، لأنّ الخبير هو العالم بباطن الأمور كظاهرها . إنّ كلاًّ من صفة الحكيم والخبير ترتبط بكلٍّ من عالم الغيب وعالم الشّهادة ، وإنّ السّياق فى الآية الكريمة نبّه إلى الملابسات المتعلّقة بعالم الغيب تلك الملابسات الّتى تلائمها الصّفة : ﴿ الحكيم ﴾ ونبّه إلى الملابسات المتعلّقة بعالم الشّهادة ، تلك الملابسات الّتى تلائمها الصّفة : ﴿ الخبير ﴾ والله أعلم . قال تعالى: ﴿ وهو الّذى خلق السّماواتِ والأرضَ بالحقِّ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ . وله الملك يوم يُنْفَخْ فى الصّور عالِمُ الغيب والشّهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

[٨]

« آتينا إبراهيم حجّتنا على قومه واقتديا محمّد بالّذين هداهم الله »

الآيـات (٧٤ ـ ٩٠)

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ
سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

إبراهيم عليه السّلام قد آتاه الله تعالى رشده قبل سنّ الرّشد ونوّر بصيرته فكانت فطرته سليمة ، ونفسه صافية ، وقلبه نقيًّا ، وشجاعته راسخة . وها هو ذا عليه السّلام ينكر على أبيه في أسلوب الاستفهام أن يتّخذ آلهةً رائفةً معبودةً من دون الله تعالى من أصنام وكواكب ونجوم وما إلى ذلك ، ويقول لأبيه وقومه بصريح اللّفظ إنّه يرى أباه وقومه في ضلالٍ مبين وابتعادٍ واضح عن الصّراط المستقيم . وبشأن آزر أبي إبراهيم عليه السّلام كان يصنع الأصنام باعتبار هذه الحرفة مهنته إضافةً إلى عبادتها فالتقت العقيدة الفاسدة بالمهنة الفاسدة في نفس آزر . وإنّ الله تعالى الّذي نوّر بصيرة إبراهيم عليه السّلام وجعل فطرته سليمةً أراه ملكوته جلّ وعلا في السّماوات والأرض وما يدلّ عليه ذلك الملك العظيم من إلـٰهٍ واحدٍ قديرٍ عليمٍ حتّى بلغ عليه السّلام في ذلك درجة الإيقان الّتي تسبقها درجة الإيمان . وإزاء إصرار قومه عليه السّلام على عبادة الأصنام والكواكب أراد أن يستدرجهم إلى الإيمان استدراجًا ، معتمدًا على الكواكب والنّجوم الّتي يقدّسها القوم من زُهَرةٍ وقمرٍ وشمس كي يبيّن لهم حقيقة تلك المخلوقات الجمادات الّتي لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا ، وكي يستدرجهم إلى الإيمان بالله تعالى الواحد القادر الخالق البارئ المصوّر العالم . ولمّا كان القوم يقدّسون على التّوالي كلاًّ من كوكب الزُّهَرة والقمر والشّمس فقد تدرّج معهم عليه الصّلاة والسّلام في الدّعوة إلى الله تعالى وذلك بالتّحوّل من الزّهرة إلى القمر إلى الشّمس . ولمّا كانت الزّهرة أشدّ لمعانًا وأكثر نورًا في اللّيالي المظلمة وبخاصّةٍ في اللّيلة الّتي يغيب فيها القمر أو في اللّيالي فإنّ إبراهيم عليه السّلام حينما جنّ عليه اللّيل وستره بظلامه ورأى كوكب الزّهرة قال لقومه الّذين كانوا يطمعون في تحوّله من عقيدة التّوحيد إلى عقيدة الشّرك فيكون واحدًا منهم ، قال لقومه مشيرًا إلى كوكب الزُّهَرة هذا ربّي حسب زعمكم. وبطبيعة الحال لم يفصح عليه السّلام بهذه الزّيادة :

حسب زعمكم ، ممّا جعل قومه يشتدّ طمعهم فى تحوّله عليه السّلام إلى عبادة الكواكب فالأصنام كما يفعلون . وظلّ القوم ينتظرون من إبراهيم عليه السّلام قولاً آخر من جنس ما جرى على لسانه ، وفعلاً مترتّبًا عليه ، وطال انتظارهم حتّى آذنت الزّهرة بمغيب فلمّا أفلت صفعهم إبراهيم عليه السّلام صفعةً أليمةً بالقول : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ والمعنى أنّ الإله الحقّ لا يغيب . ويبدو أنّ طمع القوم فى إبراهيم عليه السّلام أن يكفّ عن تسفيه أحلامهم وسبّ آلهتهم والدّخول فى دينهم قد زاد بصائرهم عمًى إلى عماها فلم يفهموا حقيقة معنى القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ لأنّ الأفول من صفات القمر والشّمس كذلك . فإبراهيم عليه السّلام لا يحبّ كلّ آفل . ومع ذلك فقد انتظر القوم إبراهيم عليه السّلام حتّى رأى القمر طالعًا فى إحدى اللّيالى الّتى يكون فيها بدرًا أو شبيهًا بالبدر فيما يُظنّ ، وكرّر عليه السّلام الموقف السّابق قولاً وعملاً وأضاف إلى ذلك فراره إلى ربّه الحقيقيّ جلّ وعلا الّذى إن لم يهده سواء السّبيل ليكوننّ من القوم الضّالّين كأبيه وقومه . وينتظر القوم إبراهيم عليه السّلام كي يصفعهم للمرّة الثّالثة والأخيرة حينما تطلع الشّمس حتّى إذا غربت وغابت تبرّأ عليه الصّلاة والسّلام من شركهم هذه المرّة ، وحينما اصرّوا على الشّرك تبرّأ منهم أيضًا على نحو ما جاء فى الآية الكريمة الرّابعة من سورة الممتحنة . ووجّه إبراهيم عليه السّلام وجهه إلى فاطر السّماوات والأرض وما فيهنّ من كواكب ونجومٍ وشمسٍ وقمر ، ويعيّن اتّجاهه نحو عقيدة التّوحيد مبتعدًا عن الشّرك والمشركين . والعجيب فى أمر القوم أنّهم يجادلون إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء فى باطلهم ويخوّفونه الأصنام ، وينكر عليهم ذلك كما ينكر عليهم أنّهم لا يخافون أنّهم أشركوا بالله تعالى ما لم ينزّل به عليهم سلطانًا ولا حجّة ، فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن ، القوم المشركون أم إبراهيم عليه السّلام الموحّد ؟ ويكون الجواب الحقّ والقول الفصل من الله تعالى فى آيةٍ كريمة : ﴿ الّذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ وهكذا آتى

الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام حجّته القوليّة على قومه وقبلها حجّته العمليّة ، ورفع درجته فقد جعله الله تعالى للنّاس إمامًا ، وكان أمّةً وَحْدَه ، وجعل الله تعالى فى ذرّيته عليه السّلام وفى ذرّيّة نوحٍ عليه السّلام أوّل المرسلين والأب الثّانى للبشر ، النّبوّة والكتاب . ويتضمّن هذا القول : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ البشارة إضافةً إلى الهبة . ويذكر السّياق نوحًا عليه السّلام الّذى هداه الله تعالى هو الآخر من ذى قبل . ولمّا كان من ذرّيّة نوحٍ وإبراهيم عليهما السّلام كلّ النّبيّين والمرسلين فقد ذكر السّياق من أولئك المصطفين الأخيار أكبر عددٍ فى ثلاث آياتٍ كريمات . إنّ عدد النّبيّين الّذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم ، وفيهم آدم عليه السّلام ، خمسةٌ وعشرون . وقد ذكرت الآيات الكريمات أسماء سبعة عشر نبيًا ، إضافةً إلى ذكر اسم إبراهيم عليه السّلام صراحةً ثلاث مرّاتٍ فى القسم ، وإضافةً إلى خطاب المصطفى ﷺ فى آخر آيات القسم : ﴿ أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل لا اسألكم عليه أجرًا إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾ .

الآيــــة رقـــم (٧٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخذ أصنامًا آلهةً إنّى أراك وقومك فى ضلالٍ مبين ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء الّذى يقع تاريخه عليه السّلام حوالي عام ١٧٥٠ قبل الميلاد[١] والّذى ولد وترعرع وآتاه الله تعالى رشده فى بلاد ما بين النّهرين الّتى كانت عبادة الكوكب والقمر والشّمس ديانات أهلها[٢] وثمّة الكثير من أوجه الشّبه بين كلٍّ من إبراهيم ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام ، ومن تلك الأوجه أنّ كلاً منهما أحد أولى العزم من الرّسل ، وسيتحوّل

---

(١) أضواء على السّيرة النّبويّة ومقارنة بين الأديان . عبد الحميد جودة السّحّار ١/١٥ مكتبة مصر ١٩٩٢ م دار مصر للطّباعة .

(٢) أضواء على السّيرة النّبويّة ١/١٤ .

الحديث إلى نوحٍ عليه السّلام وهو كذلك أحد أولى العزم من الرّسل وهو أوّلهم زمنا. وتمام خمسة أولى العزم من الرّسل موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل وعيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل . ومن تلك الأوجه أنّ كلاًّ منهما قد صادف من قومه الكثير من العنت والمشقّة ، القوم الّذين يعبدون الكواكب فى حقّ إبراهيم عليه السّلام ، والقوم الّذين يعبدون الأصنام فى حقّ محمّد ﷺ . ومن تلك الأوجه أنّ كلاًّ منهما قد آتاه الله تعالى كتابًا سماويًّا ، الصّحف المكرّمة قد آتاها الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ، والقرآن الكريم قد آتاه الله تعالى محمّدًا ﷺ . ومن أكبر تلك الأوجه كون محمّد بن عبد الله ﷺ قد بعثه الله تعالى بالصّورة الكاملة والأخيرة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام . وما أكثر الإشارات فى القرآن الكريم إلى هذا الوجه من الشّبه بين الرّسولين الكريمين والنّبيّين العظيمين ، إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء والمرسلين ، ومحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : واذكر إذ قال إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء لأبيه آزر الّذى كان يعبد الكواكب كقومه ، وإذ سأل أباه المشرك فى إنكار : أتتّخذ يا أبي أصنامًا آلهةً معبودةً من دون الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد المستحقّ وحده للعبادة دون سواه . ومع أنّ السّؤال مشوبٌ بالإنكار على هذا الوالد فإنّا نتبيّن فيه شيئًا كبيرًا من اللّطف والرّقّة ، اللّين والحكمة فى الدّعوة إلى الله تعالى . وإنّ هذه الصّفات الدّالّة على الحِلْم تذكّرنا بمثل قوله تعالى(١) : ﴿ إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاه منيب ﴾ وقوله تعالى(٢) : ﴿ إنّ إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾ ويتجلّى حلم إبراهيم عليه السّلام فى مثل قوله تعالى فى سورة مريم(٣) : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقًا نبيّا . إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبْصِر ولا يُغْنى عنك شيئا . يا أبت إنّى قد جاءنى من العِلْم ما لم

---

(١) سورة هود ٧٥ . (٢) سورة التّوبة ١١٤ .
(٣) الآيات ٤١ ـ ٥٠ .

يأتك فاتّبعنى أَهْدِكَ صراطًا سويًا . يا أبت لا تعبد الشّيطان إنّ الشّيطان كان للرّحمن عصيًا . يا أبت إنّى أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرّحمن فتكونَ للشّيطان وليًا. قال أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم . لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرنى مليًا . قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيًا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألاّ أكونَ بدعاء ربّى شقيًا . فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيًا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صِدْقٍ عليًا ﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ القول على لسان إبراهيم عليه السّلام الحليم لأبيه المصرّ على الكفر كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ إنّى أراك وقومك فى ضلالٍ مبين ﴾ إنّما جرى على لسان إبراهيم عليه السّلام فى وقتٍ لا حقّ حينما أصرّ هذا الأب ، الّذى كان يعمل الأصنام بيديه ويبيعها ويعبدها ، على الكفر والضّلال المبين والانحراف الواضح عن الصّراط المستقيم . وممّا يصحّ أن يؤيّد هذا الرّأي مجيء جملة ﴿ أراك ﴾ على لسان إبراهيم عليه السّلام خطابًا لوالده الكافر فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد الاستمرار والتّجدّد . وبناءً على ذلك فإنّ ضلال آزر وقومه قديمٌ وعميق الجذور . ومن البيّن اتّجاه الحديث اللّيّن إلى آزر وحده فى صدر الآية الكريمة ، واتّجاه الحديث القاسى الفظّ إلى آزر وقومه جميعا . وإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة الشّعراء تبيّن بعض جوانب الحوار الّذى تمّ بين إبراهيم عليه السّلام من ناحية وبين أبيه وقومه من ناحيةٍ أخرى . قال تعالى[1] : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصنامًا فنظلّ لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرّون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنّهم عدوٌّ لى إلاّ ربّ العالمين . الّذى خلقنى فهو يهدين . والّذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت

---

(١) سورة الشّعراء ٦٩ — ٨٩ .

فهو يشفين . والّذى يميتنى ثمّ يحيين . والّذى أطمع أن يغفر لي خطيئتى يوم الدين . ربّ هب لى حُكْمًا وألحقنى بالصّالحين . واجعل لى لسان صِدْقٍ فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنّة النّعيم . واغفر لأبي إنّه كان من الضّالّين . ولا تُخْزنى يوم يُبْعَثون . يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلاّ مَنْ أتَى الله بقلبٍ سليم ﴾ .

وإنّ إبراهيم عليه السّلام كما تبرّأ من أبيه وقومه الّذين أصرّوا على الكفر ، وكما كان قوله عنيفًا لأبيه وقومه فى مثل هذا القول : ﴿ إنّى أراك وقومك فى ضلالٍ مبين ﴾ تبرّأ قومه عليه الصّلاة والسّلام المؤمنون . وإلى هذا التّبرّؤ من المشركين وإلى كون إبراهيم عليه السّلام أسوةً حسنةً لنا نحن المسلمين فى التّبرّؤ من المشركين لا فى الاستغفار للمشركين أشارت هذه الآية الكريمة من سورة الممتحنة[1] : ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءاء منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدًا حتّى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء . ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

لقد آتى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام رشده قبل بلوغه سنّ الرّشد وإلى ذلك أشار قوله تعالى[2] : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين ﴾ كما أرى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام ملكوت السّموات والأرض ، وملك الله تعالى العظيم فى هذا الكون الفسيح ، ونوّر بصيرته فانتهى من صحيح الأسباب إلى صحيح النّتائج حتّى بلغ مرتبة اليقين . وإلى هذه المعاني أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

---

(١) الآية ٤ . (٢) سورة الأنبياء ٥١ .

الآيـــة رقـــم (٧٥)

قال تعالى : ﴿ وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوتَ السّماواتِ والأرضِ وليكون من الموقنين ﴾ .

من أهمّ ما يتبيّن من رباطٍ بين الآيتين الكريمتين مجيء جملة ﴿ نرى ﴾ فى هذه الآية الكريمة وجملة : ﴿ إنّى أراك ﴾ فى الآية الكريمة السّابقة فى صيغة الزّمن المضارع . والمعروف أنّ الزّمن المضارع يفيد التّجدّد والاستمرار . فالله سبحانه وتعالى كما نوّر بصيرة إبراهيم عليه السّلام فى مجال توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة على نحو ما قرّرت الآية الكريمة السّابقة وكما ينوّر بصيرته عليه الصّلاة والسّلام دائمًا ، يريه جلّ وعلا ملكوت السّماوات والأرض ، وملك الله تعالى العظيم فيهما ، ويزيد قلبه إيمانًا ونفسه يقينًا حتّى يصل عليه الصّلاة والسّلام إلى درجة الإيقان . والمعروف أنّ عميق الإيمان يقود إلى الايقان . ونستطيع أن ننتهي إلى هذا المعنى حينما ننظر إلى الآيات الكريمات فى أوّل سورة البقرة فى حديثها عن صفات المتّقين . إنّ المتّقين يؤمنون بالغيب عمومًا ، وبالقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى إليه وبسائر الكتب السّماويّة السّابقة . وإنّ المتّقين يوقنون بالآخرة لأنّها تجسيدٌ لأهمّ مظاهر الغيب ، فهي بحاجةٍ إلى درجةٍ وراء الإيمان ألا وهي درجة الإيقان . قال تعالى[1] : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين . الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدًى من ربّهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وإنّ من أهمّ ما يلفت النّظر فى الآية الكريمة الوصل فى الآية الكريمة بالواو فى القول : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ وليس الفصل بالاستغناء عن الواو ومن ثمّ كانت

---

(١) سورة البقرة ١ ــ ٥ .

الآية الكريمة تفيد معنيين اثنين وهما إراءة الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ملكوت السّماوات والأرض ، واستمرار هذه الإراءة حتّى تفضي بإبراهيم عليه السّلام إلى بلوغ درجة الإيقان المبنيّة على درجة الإيمان . إنّ الواو لو لم تأت وقيل : ليكون من الموقنين ، لأفادت الآية الكريمة معنًى ذا شقّين اثنين يُبْنى آخرهما على أوّلهما . الشّقّ الأوّل إراءة الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ملكوت السّماوات والأرض ، والآخر المترتّب عليه الإفضاء إلى اليقين . حقّاً إنّ الإفضاء إلى اليقين حاصلٌ مع الواو ومع عدم وجوها ، ولكنّ اليقين حتميٌّ مع الواو وليس حتميّاً مع عدم وجود الواو . وبناءً على ذلك يكون مجيء الواو قوّةً لصفة الاستمرار أو التّجدّد المستفادة من صيغة الزّمن المضارع : ﴿ وكذلك نُرى ﴾ وكأنّ إراءة الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ملكوت السّماوات والأرض أفضت به في المرّة الأولى إلى المزيد من نور البصيرة المفهوم ضمناً ، إذ المعنى : وكما آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكما أريناه البصيرة في دينه والحقّ في خلاف ما كانوا عليه من الضّلال[1] نريه ملكوت السّماوات والأرض لتزداد بصيرته نورا ، وقلبه يقينا ، وصدره سرورا ، وليكون من الموقنين الّذين بلغوا من الإيمان غايته ومن الإيقان نهايته .

وإنّ حديث الآيات الكريمات بعد ذلك يجمع بين الرّشد في أبهى صوره وقد آتاه الله تعالى إيّاه من قبل ، والبصيرة النّيّرة في أجمل مناظرها ، والإيقان في أسمى درجاته فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٦)

قال تعالى : ﴿ فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكبًا قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧/١٦٠ .

إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء قد آتاه الله سبحانه وتعالى رشده قبل البلوغ ، وقد استجابت فطرته النّقيّة من كلّ شائبةٍ لهذه الهبة الرّبّانيّة وتفاعلت مع ذلك العلم اللّدنيّ فتجاوزت مرحلة الامتثال للأوامر السّماويّة إلى مرحلة الدّعوة إلى الله تعالى على بصيرة . وإنّ فضل الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام كما تجلّى فى الفطرة النّقيّة تجلّى فى البصيرة النّيّرة ، وها هوذا عليه السّلام يريه ربّه جلّ وعلا هذا الملكوت العظيم ، وهذا الكون الفسيح ، فتصرخ نفسه فى الأعماق فيهتف ، إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال : ﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار ﴾[1] ولمّا كانت وظيفة الرّسل الدّعوة إلى الله تعالى وكان قومه عليه السّلام يعبدون الكواكب من نجومٍ وشمسٍ وقمر ، وكان إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى من فضله رشده من قبل قد أدرك أنّ هذه الكواكب من مخلوقات الله تعالى ، وأنّها من آيات الله تعالى الكبرى الدّالّة على وحدانيّته جلّ وعلا وعلى قدرته وعلمه سبحانه ، فإنّ إبراهيم عليه السّلام يسخّر ما منّ الله تعالى عليه من مواهب فى سبيل الدّعوة إلى الله تعالى . وها هوذا إبراهيم عليه السّلام يتدرّج فى دعوته قومه إلى دين الإسلام من أشدّ الكواكب لمعانًا ليلاً حال غيال القمر ، إلى الكوكب الّذى يغطّى على سائر الكواكب إذا ظهر ليلاً وهو القمر حينما يكون بدرًا على جهة الخصوص ، إلى الشّمس الّتى يأتى معها النّهار ويذهب اللّيل ولا يبدو معها كوكب ، بما فى ذلك القمر الّذى يظهر أحيانًا مع الشّمس ولكن يكاد يتساوى فى عدم الجدوى وجوده وعدمه .

ولمّا كان القوم يعبدون ضمن ما يعبدون كوكب الزُّهَرة[2] والقمر والشّمس ، وكانت هذه الكواكب مرتّبةً حسب نورها أو ضوئها ، وحسب شرفها فى نفوس القوم وفق هذا النّسق الزُّهَرة ، القمر ، الشّمس ، وكانت علاقة الزُّهَرة والقمر باللّيل

---

(١) سورة آل عمران ١٩١ .

(٢) الزُّهرة بفتح الهاء على وزن رطبة نجم وهو أحد الكواكب السّبعة السّيّارة . تفسير ابن كثير ١٥١/١ .

وعلاقة الشّمس بالنّهار ، وكانت علاقة الزّهرة باللّيل خالصًا ، وعلاقة القمر باللّيل والنّهار اشتراكًا ، وعلاقة الشّمس بالنّهار خالصًا ، فقد كان تدرّج إبراهيم عليه السّلام مع قومه وفق هذا النّسق فى دعوتهم إلى الله تعالى . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن تسخير إبراهيم عليه السّلام كوكب الزّهرة فى سبيل الدّعوة إلى الله تعالى ، باعتبار كوكب الزّهرة أشدّ الكواكب توهّجًا ، وبناءً على ذلك كانت لهذا الكوكب فى نفوس القوم الّذين يعبدون الكواكب منزلةٌ لعلّها لا تتقدّمها سوى منزلة القمر ، فى حين تتقدّم منزلة الشّمس منزلة القمر[1] .

ومتى تبدو الكواكب شديدة التّوهّج ؟ ومتى تبدو الزُّهَرة بالذّات أشدّ توهّجا ؟ حينما يغيب القمر ، وبخاصّةٍ حينما يستسرّ ويختفى ليلةً واحدة إن كان الشّهر ناقصًا أو ليلتين إن كان الشّهر كاملاً . والسِّرار ، بفتح السّين وكسرها ، اليوم الّذى يستتر فيه القمر آخر الشّهر[2] .

إنّ جملة : ﴿ جنّ عليه اللّيل ﴾ بمعنى أظلم عليه اللّيل وغطّاه بسواده وستره بظلمته تشير إلى ليلة السّرار الّتى نظنّ أنّ إبراهيم عليه السّلام قد اختارها من بين اللّيالى كي تبدو الزّهرة فى ليلها البهيم أشدّ نورًا وأكثر بهاءً . إنّ إبراهيم عليه السّلام الموحى إليه والّذى آتاه الله تعالى رشده قبل وقت الرّشد المعتاد يلتفت إلى الزُّهَرة الشّديدة التّوهّج فى تلك اللّيلة الحالكة السّواد كي يكون اندماج قومه الّذين يعبدون ذلك الكوكب كاملاً وتجاوبهم كبيرًا مع قول إبراهيم عليه السّلام ، مشيرًا إلى ذلك الكوكب ومنوّهًا بشأنه حسب زعم القوم وادّعائهم ، كما جاء على لسانه فى الآية الكريمة : ﴿ هذا ربّي ﴾ وينبغى أن يكون ابتهاج القوم طوال تلك

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير ١٥١/١ بشأن قوم إبراهيم عليه السّلام : « وأشدّهنّ إضاءةً وأشرفهنّ عندهم الشّمس ثمّ القمر ثمّ الزّهرة » ويرى الأستاذ عبد الحميد جودة السّحّار فى : أضواء على السّيرة النّبويّة ١٥/١ أن الكوكب فوق الآلهة جميعًا فالقمر فالشّمس .

(٢) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « سرر » ٢٢٨ ومعجم مقاييس اللّغة : « سرر » ٦٧/٣ .

اللّيلة بما جرى على لسانه عليه السّلام ليس عليه من مزيد لأنّهم على علمٍ مسبق بِغَيْبِ إبراهيم عليه السّلام آلهتهم المزعومة ، وتسفيه أحلامهم . وبقدر ابتهاج القوم بما جرى على لسان إبراهيم عليه السّلام فى القول : ﴿ هذا ربّى ﴾ ورضاهم عمّا فهموا من انضمام إبراهيم عليه السّلام إلى صفوفهم كانت خيبة أملهم فى القول الّذى جرى على لسان إبراهيم عليه السّلام بعد أن أفل الكوكب وغاب عن الأعين واختفى عن الأنظار : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ إنّ لسان حاله عليه الصّلاة والسّلام يقول : وهل الرّبّ يغيب ! إنّ غياب الكوكب بعد حضور معناه أنّه مخلوقٌ لفاطر السّماوات والأرض الّذى بيده ملكوت كلّ شيء .

وحينما نتبيّن أنّ أوهام القوم فى مجال العبادة تقوم على ما يشبه الأثافى الثّلاثة ندرك أنّ أولى الأثافى قد تمّ القضاء عليها فى الآية الكريمة ، أو أنّ أحد أضلاع المثلّث الممثّل لتلك الأوهام قد تمّ القضاء عليه والتخلّص منه ، وذلك بقول إبراهيم عليه السّلام عن الكوكب الآفل : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ ويلاحظ أنّ التّعبير يجىء فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدّد والاستمرار ، والّذى ينسحب فى مثل هذه الحال على الزّمن الماضى ، لأنّ إبراهيم عليه السّلام لم يكن وقتًا من الأوقات محبًّا لكوكب الزّهرة على النّحو الّذى فهمه قومه من القول على لسانه : ﴿ هذا ربّي ﴾ إنّهم فهموا هذا القول على حقيقته ، وإنّ إبراهيم عليه السّلام يضيف فى أعماقه إلى هذا القول : ﴿ هذا ربّي ﴾ حسب زعمكم واعتقادكم .

أما وقد تمّ القضاء فى مجال وهم القوم بشأن العبادة على ما يصحّ أن ينزّل من هذا الوهم منزلة أولى الأثافى ، وكان ذلك بالتّنبيه إلى أنّ هذا الكوكب الشّديد التّوهج فى اللّيلة الشّديدة الظّلام مخلوقٌ ومسيّر بدليل غيابه بعد الحضور ، وأفوله بعد المثول ، ولمّا كان القمر يلى كوكب الزّهرة فى شدّة النّور وبخاصّةٍ حينما يكون بدرًا ، وربّما كان القمر يلى كوكب الزّهرة منزلةً فى نفوس القوم فقد تحوّل إبراهيم

عليه السّلام فى الآية الكريمة التّالية على لسانه عليه السّلام إلى القمر ، إلى الضّلع الثّانى من مثلّث وَهْمِ القوم فى مجال العبادة أو ثانية الأثافى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٧)

قال تعالى : ﴿ فلمّا رأى القمر بازغًا قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضّالّين ﴾ .

إذا كان كوكب الزّهرة قد توهّج بفعل اللّيل البهيم الذى هبط بظلامه على إبراهيم عليه السّلام فإنّ القمر أكثر إيجابيّةً ، ودوره فى مجال النّور أشدّ وضوحًا من دور كوكب الزّهرة . وتفسير ذلك أنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى لطم قومه عبدة الكوكب للمرّة الأولى حينما قال عن الكوكب الّذى أفل : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ قد انتظر نصف شهرٍ حدًّا أدنى وهي المدّة الّتى يحتاجها القمر منذ أن يولد هلالاً فى أوّل الشّهر إلى أن يصير بدرًا فى منتصف الشّهر ، رغم أنّ لفظ القمر يطلق عند الامتلاء وذلك بعد اللّيلة الثّالثة . وقيل وسمّي بذلك لأنّه يَقْمُرُ ضوء الكواكب ويفوز به[1] وكما اختار إبراهيم عليه السّلام من الكفّار ـ فيما يُظَنُّ ـ ليلة الشّرار الّتى يتوهّج فى أثنائها الكوكب ، اختار ليلة النّصف الّتى يكون فيها القمر بدرًا ، والّذى سمّي بذلك لمبادرته الشّمس بالطّلوع[2] شرقًا وهي الّتى تغيب غربًا . إنّ القمر ليلة البدر أكثر مواجهةً للشّمس ، وبالتّالى أكثر قدرةً بالنّسبة لسكّان الأرض ، على تحويل ضياء الشّمس نورًا . ولمّا كان هدف إبراهيم عليه السّلام من بزوغ القمر بمعنى ظهوره ، أن يظهر نور القمر فى أقوى صوره وإنّما يتمّ ذلك بعد غروب الشّمس وقبض الظّلّ ، فلا مانع من أن يكون إبراهيم عليه السّلام قد تأخّر عن ليلة

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قمر » ٤١٢

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بدر » ٣٨

النّصف ليلةً أو ليلتين مثلاً لأنّ القمر إنّما يظهر بعد ليلة النّصف متأخّرًا بعض الوقت وبعد دخول اللّيل وهبوط الظّلام . والمعروف أنّ القمر فى اللّيالى البيض أي المقمرة ، وهنّ ثلاث ليالٍ يطلع فيها القمر من أوّلها إلى آخرها . وهنّ ليلة ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة[1] والمعروف كذلك أنّ نقص القمر بعد النّصف ليلةً أو ليلتين لا يكاد المرء يحسّ به .

ونستطيع أن نفهم أنّ قوم إبراهيم عليه السّلام عابدى الكواكب كانوا ملازميه هذه المرّة ، وذلك على غرار المرّة الأولى ، وذلك من أجل أن يسمعوا منه فى آلهتهم المزعومة كلامًا حسنًا . ولهذا كانوا آذانًا صاغيةً لإبراهيم عليه السّلام حينما جاء على لسانه عليه السّلام القول بمجرّد أن رأى القمر طالعًا كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ هذا ربّي ﴾ وهذا القول الّذى جاء فى حقّ القمر : هذا ربّي حسب زعمكم واعتقادكم هو ذات القول الّذى جاء على لسانه عليه السّلام فى حقّ الكوكب ، وهو الّذى سوف يجىء على لسانه عليه السّلام فى حقّ الشّمس . وينبغى أن يبتهج القوم لاسم الإشارة ﴿ هذا ﴾ الّذى يدلّ على القرب وعلى رفيع المنزلة للمشار إليه فى مثل هذه الحال . كما ينبغى أن يكون منهم الابتهاج ذاته لاستعمال لفظ الرّبّ المضاف إليه ياء المتكلّم . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى مجال الخصوص ، وفى مجال الشّعور بالرّضا والسّرور ، والتّعبير عن البهجة والحبور .

وكما صفع إبراهيم عليه السّلام قومه فى المرّة الأولى وذلك فى القول : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ وجّه إليهم الآن صفعةً أخرى بل صفعةً أكبر لأنّه لم يعبّر هذه المرّة عن عدم حبّه للقمر الّذى أفل كما أفل الكوكب إنّما صرّح بربّه الحقيقيّ مربّيه بنعمه وآلائه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وفى ذلك طردٌ لهذا الإله المزعوم كسابقه . ثمّ إنّه عليه السّلام عبّر عن ضعفه وعجزه وقلّة حيلته بأنّه إن لم تتداركه رحمة البرّ الرّحيم ليكوننّ من القوم الضّالّين الّذين يشركون مع الله تعالى غيره فى

---

(١) لسان العرب « بيض » .

العبادة . وبما أنّ إبراهيم عليه السّلام قد بدأ أباه وقومه بالقول كما جاء فى الآية الكريمة الأولى في القسم : ﴿ إنّي أراك وقومك فى ضلال مبين ﴾ فذلك معناه أنّ هذا القول : ﴿ لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضّالّين ﴾ فيه تعريضٌ بقومه الضّالّين الّذين يعبدون القمر كما يعبدون كوكب الزّهرة وكما يعبدون الشّمس . لقد كان قوم إبراهيم عليه السّلام ينتظرون منه كلّ مرّة أن يكفّر عمّا يعتبرونه سيّئاتٍ فى حقّهم ، وفى كلّ مرّةٍ كانوا يفاجأون بما يعتبرونه سيّئةً جديدةً وصفعةً أكيدة .

ويصحّ أن نفهم أنّ عدم تأكّد القوم من المعنى الحقيقيّ للفظة الرّبّ على لسان إبراهيم عليه السّلام فى القول : ﴿ لئن لم يهدني ربّي ﴾ جعلهم يفرّون بآمالهم إلى الكذب بأنّ الرّبّ الّذى يقصده إبراهيم هو الشّمس مثلاً . أليسوا هم الّذين يعبدون الزّهرة والقمر والشّمس . أليس إبراهيم قد قال عن كلٍّ من الزّهرة والقمر : ﴿ هذا ربّي ﴾ ـ حسب زعمهم ـ ثمّ كان له رأيٌ فى كلٍّ منهما . وما الّذى يمنع إبراهيم من أن يقول عن الشّمس . هذا القول ذاته : ﴿ هذا ربّي ﴾ ويعتقد صحّته . وهكذا يفرّ القوم بآمالهم إلى الكذب ويرجئون ثورتهم العارمة على إبراهيم عليه السّلام إلى حين .

وإنّ ثمّة شيئًا واحدًا نودّ أن نشير إليه هو أنّ رؤية إبراهيم عليه السّلام كلاًّ من الكوكب والقمر والشّمس تشترط صفاء السّماء وعدم تلبّدها بالغيوم واختفائها وراء السّحب . وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الشمس فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٨)

قال تعالى : ﴿ فلمّا رأى الشّمس بازغةً قال هذا ربّي هذا أكبر . فلمّا أفلت قال يا قوم إنّى بريٌ ممّا تشركون ﴾ .

إنّ رؤية إبراهيم عليه السّلام الكوكب إذا كانت تقتضى ظلمة اللّيل البهيم وصفاء السّماء ، ورؤيته عليه السّلام القمر إذا كانت تقتضى كون القمر بدرًا أو ما يشبه البدر وصفاء السّماء كذلك ، فإنّ رؤية إبراهيم عليه السّلام الشّمس طالعةً تقتضى صفاء السّماء ولا تشترط أيّ يوم . وإذا كنّا تبيّنّا بالضّرورة فترةً زمنيّةً فاصلةً بين رؤية الكوكب ورؤية القمر فإنّ هذه الفترة الزّمنيّة ليست ضروريّةً فى حقّ الشّمس الممكن رؤيتها كلّ يوم شريطة صفاء السّماء . ويصحّ أن يكون حديث إبراهيم عليه السّلام عن الشّمس على التّراخى ، وذلك على غرار التّراخى بين رؤية الكوكب ورؤية القمر من أجل أن يستوعب القوم الكافرون عابدو الكواكب كلاًّ من الدّروس الثّلاثة ، ويصحّ أن يكون الحديث عن الشّمس على الفور ما دامت الظّروف مواتيةً ومنها تطلّع القوم الكافرين إلى موقف إبراهيم عليه السّلام من إلههم الثّالث الأكبر المزعوم وهو الشّمس .

وقد جاء على لسان إبراهيم عليه السّلام في حقّ الشّمس القول الّذى مهّد به عليه السّلام لصفعهم فى كلٍّ من المرّتين السّابقتين ، فها هوذا عليه السّلام يجىء على لسانه للمرّة الثّالثة القول فى حقّ الشّمس الطّالعة : ﴿ هذا ربّي ﴾ حسب زعمكم وادّعائكم بين يدي ضربه عليه الصّلاة والسّلام لهم الضّربة القاضية .

واستخفافًا من إبراهيم عليه السّلام بعقول القوم يقول عن الشّمس الرّبّ المزعوم: ﴿ هذا أكبر ﴾ وإذا كان القول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ هذا ربّي ﴾ قد بعث الأمل الخافت فى نفوس القوم بأن يوافقهم إبراهيم عليه السّلام على عبادتهم للشّمس ، فإنّ هذا الأمل اصبح أكبر حينما جرى على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ هذا أكبر ﴾ لأنّ هذا القول يفهمونه على أنّه بمثابة التّعليل المنطقيّ والمعقول والمقبول لعبادة الشّمس الّتى ينزّلها القوم أرفع المنازل الثلاث وأشرفها بسبب قوّة ضياء الشّمس النّجم السّراج الوهّاج .

وبقدر تطويح إبراهيم عليه السّلام بآمال القوم وأوهامهم بعيدًا بالقول : ﴿ هذا ربّي هذا أكبر ﴾ كان صفعه لهم وإيلامهم فى القول على لسانه عليه السّلام بعد أن أفلت الشّمس وغربت : ﴿ إنّي بريءٌ ممّا تشركون ﴾ .

والحقيقة انّا نستطيع أن نفهم من القول مرّتين اثنتين : ﴿ فلمّا أفل ﴾ والقول مرّةً واحدةً : ﴿ فلمّا أفلت ﴾ الصّبر المرير الّذى تجرّعه قوم إبراهيم عليه السّلام فى كلٍّ من المرّات الثّلاث طمعًا فى تحوّله عليه السّلام إلى صفوفهم ، وأملاً فى أن يسمعوا منه عليه الصّلاة والسّلام كلمةً واحدةً تسرّهم فى حقّ أصنامهم الّتى يعبدونها من دون الله تعالى بعد أن قال لهم من ذى قبل بصريح اللّفظ ولأبيه آزر : ﴿ إنّي أراك وقومك فى ضلالٍ مبين ﴾ . وإنّما كان الصّبر مريرًا بسبب طول الانتظار من ناحية، وبسبب خيبة أمل القوم من ناحيةٍ أخرى . أمّا المرارة بسبب طول الانتظار فلأنّ الوقت بين البزوغ والأفول فى كلٍّ من المرّات الثّلاث كان طويلاً . إنّ الحديث عن كوكب الزّهرة ابتداءً كان فى أثناء اللّيل وإنّ أفول الكوكب كان بعد لأي . وقياسًا على أفول القمر الّذى يكون بسبب غيابه غربًا نميل إلى الاعتقاد بأنّ أفول النّجم إنّما كان بسبب غيابه من السّماء وذلك بسبب القول الواحد فى الآيتين الكريمتين عن كلٍّ من الكوكب والقمر : ﴿ فلمّا أفل ﴾ .

وإذا كان الوقت طويلاً فى حقّ الكوكب فإنّه آكد فى حقّ كلٍّ من القمر والشّمس . إنّ القمر حينما يكون بدرًا يطلع مع غروب الشّمس ويغرب مع طلوعها. وإنّ وقت طلوع الشّمس وغروبها معروفٌ وواضح المعالم لأنّه يستغرق نهارًا كاملاً وذلك على غرار استغراق القمر ليلة البدر ليلاً كاملاً .

وإذا كان القول على لسان إبراهيم عليه السّلام فى حقّ الكوكب : ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ أليمًا للقوم ، وكان القول على لسانه عليه السّلام فى حقّ القمر : ﴿ لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضّالّين ﴾ أشدّ إيلامًا ، فإنّ هذا القول الثّالث والأخير على لسان إبراهيم عليه السّلام فى حقّ الشّمس ربّهم الأكبر : ﴿ يا قوم

إنّي بريءٌ ممّا تشركون ﴾ أشدّ الأقوال الثلاثة إيلامًا للقوم لأنّ فيه البراءة من القوم ، ووصفهم بالشّرك وبارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ، ووصفهم بأنّهم القوم الضّالّون ، ووصف الآلهة بصفةٍ سيّئةٍ هي صفة الأفول بعد الحضور ، وهي الصّفة الّتى لا يمكن أن يتّصف بها الإله الحقّ القدير العليم .

وبعد أن تبرّأ إبراهيم عليه السّلام من شرك أبيه وقومه وكان دور التّخلية ، جاء دور البديل الصّحيح أو التّحلية ، وذلك فى الآية الكريمة التّالية . فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٩)

قال تعالى : ﴿ إنّي وجّهت وجهي للّذى فطر السّماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا من المشركين ﴾ .

ومن البيّن اشتمال الآية الكريمة على أربعة معان . الأوّل وجهة إبراهيم عليه السّلام : ﴿ إنّي وجّهت وجهي ﴾ الثّاني خلق الله تعالى السّماوات والأرض وما فيهنّ على غير مثالٍ سابقٍ ، وممّا له علاقةٌ بالسّماء الكواكب والنّجوم والشّمس والقمر الّتى يغيب ويحضر جميعها بإرادة الله تعالى : ﴿ للّذى فطر السّماوات والأرض ﴾ الثّالث الاتّجاه الصّحيح نحو الغاية والسّير المليح نحو الهدف : ﴿ حنيفا ﴾ والرّابع إصابة الغاية والوصول إلى الهدف : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ . وإنّ كلاً من هذه المعاني الأربعة بحاجةٍ إلى الوقوف عنده .

بشأن المعنى الأوّل المتعلّق بتحديد الجهة وتعيين الهدف يجيء على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ إنّى وجّهت وجهي ﴾ وإنّ من أوّل ما يلفت الانتباه الجناس غير التّام بين القول : ﴿ وجّهت ﴾ و: ﴿ وجهي ﴾ وممّا يزيد القرب بين جهتي القول بهاءً ورونقًا الاشتراك فى الأصل اللّغويّ : « وجه » ممّا يعني القرب المعنويّ وراء القرب اللّفظيّ . وهذا القرب المعنويّ يتجلّى فى كون الجهة والوجهة بمعنى

المَقْصِد الّذي نتوجّه إليه ونستقبله بأوجهنا[1] ولمّا كان الوجه أوّلَ ما يستقبلك وأشرفَ ما في ظاهر البدن استُعْمِلَ في مستقْبَل كلّ شيءٍ وفي أشرفه ومبدئه[2] وقد عبّر إبراهيم عليه السّلام بتوجيه وجهه في القول : ﴿ إنّي وجّهت وجهي ﴾ عن معتقده وقصده ونيّته . وبذلك يكون التّعبير عن هذه الأمور المعنويّة بتوجيه الوجه وهو من الأمور الحسّيّة لأنّ الوجه وهو اشرف أجزاء الرّأس وأشرف أجزاء الجسد خير ما يعبّر عن النّيّة والقصد والمعتقد ، وما يترتّب على ذلك من قولٍ أو عمل . وإلى أيّ جهةٍ وجّه إبراهيم عليه السّلام وجهه ؟ ذلك ما عبّر عنه المعنى الثّاني في الآية الكريمة .

بشأن المعنى الثّاني المتعلّق بتوجيه إبراهيم عليه السّلام وجهه إلى الله تعالى الّذي فطر السّماوات والأرض وما فيهنّ وخلقهنّ على غير مثالٍ سابقٍ وأبدعهنّ يجيء على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السّماوات والأرض ﴾ إنّ إبراهيم عليه السّلام حينما يتّجه بوجهه وقصده إلى الله تعالى فذلك معناه إعراضه وصدّه عن الآلهة المزعومة الّتي يعبدها المشركون من دون الله تعالى ومنها الكواكب والنّجوم والشّمس والقمر . ويتبيّن من هذا القول على لسان إبراهيم عليه السّلام أنّ الله تعالى الّذي خلق السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابقٍ وخلق كلّ ما فيهنّ ومن فيهن ، هو خالق إبراهيم عليه السّلام وأبيه وقومه وكوكب الزّهرة والقمر والشّمس وكلّ ما في السّماوات والأرض ومن في السّماوات والأرض . إنّ من لديه أدنى مُسْكَةٍ من عقل ، وأقلّ بقيّةٍ من فكر يعلم أنّ المستحقّ للعبادة هو الخالق البارئ المصوّر وليست تلك المخلوقات ، من يعقل منها وما لا يعقل . ولا يكاد ينقضي العجب من قوم إبراهيم عليه السّلام الّذين يعبدون الجمادات من كوكبٍ وقمرٍ وشمسٍ ، أي أقلّ المخلوقات درجةً حينما ينظر

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وجه » ٥١٣ ، ٥١٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وجه » ٥١٣

إلى ترتيبها من أسفل إلى أعلى ، من الجماد والنّبات والحيوان والإنسان . وليس بخافٍ إلحاح السّورة الكريمة البعيد المدى على خلق الله تعالى السّماوات والأرض ، لأنّ من أهداف المكّيّ من القرآن إرساء اسس العقيدة والتّوسّل إلى هذه الغاية بالأمور الأساسيّة مثل خلق الله تعالى السّماوات والأرض الّذى تتحدّث عنه السّورة الكريمة بطريقةٍ مباشرةٍ فى الآيات الكريمات الأولى ، والرّابعة عشرة ، والثّالثة والسّبعين ، وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، والحادية بعد المائة .

وبشأن المعنى الثّالث المتعلّق بالاتّجاه الصّحيح نحو الغاية يجىء على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ حنيفا ﴾ والحَنَف فى المحسوسات أصلاً بمعنى الميل . والحَنَف اعْوِجاجٌ فى الرِّجل إلى داخل . ورَجُلٌ أحنف أي مائل الرّجلين[1] ثمّ استعملت اللّفظة فى المعنويّات فأصبح الحَنَف بمعنى الميل عن الضّلال إلى الاستقامة ، وفى المقابل الجَنَف ميلٌ عن الاستقامة إلى الضّلال ، والحنيف هو المائل إلى ذلك . وتحنّف فلانٌ أي تحرّى طريق الاستقامة[2] والحنيف : المائل إلى الدّين المستقيم[3] وبناءً على ما سبق يكون معنى : ﴿ حنيفًا ﴾ مائلاً عن كلّ ضلال إلى الصّراط المستقيم والدّين القويم والهدف الصّحيح .

وبشأن المعنى الرّابع المتعلّق بإصابة الهدف والوصول إلى الغاية يجىء على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ والمعنى أنّه عليه الصّلاة والسّلام من الموحّدين الّذين يفردون الله تعالى فاطر السّماوات والأرض بالعبادة . ولمّا كان إبراهيم عليه السّلام فى أمّةٍ مشركة وكان هو الموحّد الّذى يفرد الله تعالى بالعبادة فقد كان عليه الصّلاة والسّلام وحده أمّةً قائمةً برأسها وقد قال تعالى[4] : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّةً قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ﴾ إنّ إبراهيم عليه السّلام هو الممثّل وحده لأمّة التّوحيد آنذاك .

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : «حنف» ٢/١١٠ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : «حنف» ١٣٣، ١٣٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حنف » ١٣٣ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « حنف » ٢/١١٠ . (٤) سورة النّحل ١٢٠ .

وهكذا يتبيّن فى الآية الكريمة السّرد المعجز لحبّات المعاني حتّى كان الوصول إلى الغاية الحميدة والهدف المنشود بتوحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة وقيام ملّة الإسلام وظهور دين الإسلام .

ولمّا كان إبراهيم عليه السّلام قد ضرب قومه فى الصّميم من ناحية المعتقد ، فها هوذا عليه الصّلاة والسّلام يفعل بآلهتهم المزعومة المعلّقة فى السّماء بيد القدرة الإلهيّة شيئًا غير بعيدٍ ممّا فعله بآلهتهم المزعومة فى الأرض من أصنامٍ وأوثانٍ حينما راغ عليها ضربًا باليمين بفأسه عليه الصّلاة والسّلام . إنّ إبراهيم عليه السّلام بدأ بآلهتهم المزعومة المعلّقة فى السّماء وثنّى بآلهتهم المزعومة فى الأرض . ومن الطّبيعيّ أن يعملوا جاهدين من أجل الحدّ من غُلواء إبراهيم عليه السّلام والفلّ من غربه فدخلوا معه فى خصامٍ عنيف وجدالٍ طويل على نحو ما يبدو من الآيات الكريمات بعد ذلك فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٠)

قال تعالى : ﴿ وحاجّه قومه . قال أتحاجّونّى فى الله وقد هدانى . ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئًا . وَسِعَ ربّي كلّ شيءٍ علمًا . أفلا تتذكّرون ﴾ .

وخاصم إبراهيمَ عليه السّلام فى حقّ الآلهة المزعومة قومُه عليه الصّلاة والسّلام وجادلوه جدالاً عنيفًا . وانظر إلى الجملة الّتى تستعمل فى التّعبير عن خصام القوم وجدالهم : ﴿ وحاجّه قومه قال أتحاجّوني ﴾ إنّ قوم إبراهيم عليه السّلام الضّالّين المضلّين بلغ اعتقادهم فى صحّة ما يأتون من شرك إلى الحدّ الّذى حاجّوا معه إبراهيم عليه السّلام وكأنّ بيدهم حججًا لا يمكن دحضها ، وبراهين لا يمكن دمغها . ولا يكاد ينتهى العجب من الضّالّين المضلّين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ الّذين يدافعون دفاعًا مستميتًا عن باطلهم . وإنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى رشده مَنّاً منه

تعالى وفضلاً لينكر على قومه فى أسلوب الاستفهام أن يحاجّوه عليه الصّلاة والسّلام فى توحيد الله تعالى وفى دين الإسلام لله ربّ العالمين الّذى هداه الله تعالى إليه . وما أبلغ القول على لسان إبراهيم عليه السّلام عن ربّه جلّ وعلا : ﴿ وقد هدان ﴾ إثر حديثه عن الشّرك الّذى ارتكبه قومه والضّلال المبين الّذى تورّطوا فيه . ومن البيّن مجيء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ فى القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ أتحاجّونّى فى الله وقد هدان ﴾ لأنّ القضيّة الّتى يتحدّث إبراهيم عليه السّلام مع قومه بشأنها قضيّة عامّة تهمّ الجميع وليس إبراهيم عليه السّلام وحده وهي قضيّة التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة ، ولأجل هذا جاء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن العموم على لسان إبراهيم عليه السّلام فى هذه القضيّة العامّة . أليس إبراهيم عليه السّلام هو الّذى ابتلاه ربّه جلّ وعلا بكلماتٍ فأتمّهنّ . بلى . أليس إبراهيم عليه السّلام هو الّذى استمرّ يدعو قومه إلى هذه القضيّة العامّة المهمّة ، قضيّة التّوحيد حتّى قذف به قومه عليه السّلام فى النّار التى نجّاه الله تعالى منها . بلى .

وتجاه ضعف حجّة المشركين أمام حجج إبراهيم عليه السّلام هم يفرّون ، شأن العاجزين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ إلى سلاح التّخويف . فها هم أولاء يخوّفون إبراهيم عليه السّلام من غضب الآلهة المزعومة على إبراهيم عليه السّلام وتوجيه سخطها إليه من كوكبٍ وقمرٍ وشمس ، ومن صنمٍ ووثنٍ ، ولا ننسى أنّ والد إبراهيم عليه السّلام كان يعمل الأصنام والأوثان بيديه وكانت مصدر رزقه فاصطلحت لقمة العيش مع العقيدة الفاسدة . إنّ إبراهيم عليه السّلام يعلن بأعلى صوته على رءوس الأشهاد بأنّه لا يخاف ما يشركونه به جلّ وعلا من آلهةٍ مزعومة ، وما يشركونه معه جلّ وعلا من أصنامٍ وأوثان لا تنفع ولا تضرّ ولا تملك حياةً ولا موتًا ولا نشورا .

ولمّا كان القوم قد خوّفوا إبراهيم عليه السّلام آلهتهم المزعومة أن توصل إليه أذاها، وكان إبراهيم عليه السّلام هو وحده آنذاك الّذى يعبد الله تعالى الواحد

الأحد الفرد الصّمد ، وبذلك كان عليه الصّلاة والسّلام فى وادى التّوحيد وقومه فى وادى الضّلال أو أودية الهلاك ، ولمّا كان الأذى الّذى يمكن أن يصل إبراهيم عليه السّلام هو فقط ما أذن به هذا الإله المعبود وحده بحقّ وذلك الرّبّ الواحد فقد جاء على لسان إبراهيم عليه السّلام لفظ الرّبّ فى القول : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئا ﴾ .

إنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وفى مجال التّعبير عن شعور العبد بالرّضا والامتنان لتربية الله تعالى له بالنّعم والآلاء ، وفى مجال التّعبير عن فقر العبد لعون ذلك الرّبّ الواسع الإحسان ، الكريم المنّان ، القادر وحده على دفع الضّرّ وجلب النّفع . إنّ هذه المعاني بعض ما أوحى به استعمال لفظ الرّبّ على لسان إبراهيم عليه السّلام ، وإنّ الّذى قوّى من هذه المعاني مجيء الضّمير العائد إلى إبراهيم عليه السّلام لاحقًا بلفظ الرّبّ الحبيب إلى قلب إبراهيم عليه السّلام وكلّ مؤمن ، القريب من لسانه .

إنّ ربّ إبراهيم عليه السّلام البرّ الرّحيم إن أراد أن يصل إبراهيم عليه السّلام شيءٌ من أذًى فلا صارف له إلاّ هو جلّ وعلا ولا كاشف له إلاّ هو جلّ وعلا وفى كلّ الأحوال لا دخل لتلك الآلهة المزعومة ولا دخل لسواها فيما يمكن أن يصيب إبراهيم عليه السّلام من خيرٍ أو شرّ ، لأنّ كلّ شيءٍ من ضرٍّ أو نفعٍ إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى وحده دون سواه . فلا مكان لتلك الآلهة المزعومة ، لا فى مجال الخوف ولا فى مجال الطّمع . إنّ الأمر كلّه لله تعالى الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر .

ولمّا كان كلٌّ من القدرة والعلم ملازمًا للآخر وكان القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئًا ﴾ ذا علاقةٍ بالقدرة ، فإنّ القول بعد ذلك على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ وسع ربّي كلّ شيءٍ علما ﴾ متعلّقٌ بالعلم . ولا نزال مع القول الّذى يجيء فى الآية الكريمة للمرّة الثّانية على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ربّى ﴾ إنّ ربّ إبراهيم عليه السّلام

القدير هو العليم أيضًا الّذى وسع كلّ شيءٍ علمًا وأحاط به خبرًا . وينبغى أن يكون للفظ : ﴿ شيء ﴾ فى الجزئيّة الكريمة أكبر الدّور فى تأكيد علم الله تعالى المحيط ، فكما لا يخرج شيءٌ عن قدرته جلّ وعلا لا يخرج شيءٌ عن علمه جلّ وعلا .

ومن البيّن أنّ حديث إبراهيم عليه السّلام عن قدرة الله تعالى المطلقة وعلمه جلّ وعلا المحيط إنّما يأتى بعد تأكيده عليه السّلام عجز تلك الآلهة وجهلها ، بدليل أنّه عليه السّلام لا يخافها فى شيء ، وبدليل أنّه كسّر بيمينه رقاب تلك الأصنام وحطّم بفأسه رءوسها فما استطاعت أن تدفع الضّرّ عن نفسها فكيف تدفع الضّرّ عن سواها . والمعروف أنّ الّذى يعجز عن دفع الضّرّ أعجز عن جلب النّفع وهذا بيّن . لكلّ ذلك جاء على لسان إبراهيم عليه السّلام فى نهاية الآية الكريمة الاستفهام الإنكاريّ : ﴿ أفلا تتذكّرون ﴾ أفلا تتّعظون أيّها القوم ، أفلا تستعملون عقولكم الّتى منّ الله تعالى بها عليكم استعمالاً صحيحًا بعد أن عطّلتموها عن العمل بل أسأتم استعمالها . إنّكم حينما تستعملون عقولكم استعمالاً صحيحًا تستقبلون العلم الصّحيح استقبالاً صحيحًا وترحّبون بالإيمان ترحيبًا حارًّا فترى بصائركم نور الإيمان، وتنزله نفوسكم المنزلة اللّائقة به فترقّ قلوبكم ، وتصفو نفوسكم ، وتبتهج قلوبكم ، وتنفعكم الموعظة ، وتفيدكم الذّكرى .

وإذا كان من على الباطل يخوّف من على الحقّ الآلهةَ المزعومةَ العاجزة الجاهلة فإنّ واجب من على الحقّ أن يعمل على إعادة الفريق الضّالّ إلى رشده وفكره المنحرف إلى صوابه . وقد قامت الآية الكريمة التّالية بهذا الدّور فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨١)

قال تعالى : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانًا . فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ .

إنّ إبراهيم عليه السّلام الحليم الرّشيد يواصل مخاطبة قومه الضّالّين فى أسلوبه الاستفهاميّ الإنكاريّ قائلاً : وكيف أخاف الآلهة المزعومة الّتى أشركتموها فى العبادة مع الله تعالى وهي الآلهة العاجزة الجاهلة ، وهو الله تعالى القدير العليم ، وكيف لا تخافون وأنتم الأَوْلى بالخوف لأنّكم أشركتم بالله تعالى ما لم ينزّل به عليكم سلطانًا بيّنًا ولا حجّةً واضحة . ألستم وأنتم الّذين تعبدون الأصنام والكواكب وتذرون أحسن الخالقين أولى بالخوف من الله تعالى ، بسبب صرفكم العبادة الّتى يستحقّها وحده جلّ وعلا إلى ما لا يستحقّها من الأصنام والكواكب . وانظر إلى حكمة إبراهيم عليه السّلام الّتى تتجلّى فى تخويفه قومه من الشّرك فى حين يخوّفه قومه من الآلهة ذاتها .

ولمّا كان الخوف يقابله الأمن وكان الخوف من نصيب قوم إبراهيم عليه السّلام فإنّ الأمن والأمان من نصيب إبراهيم عليه السّلام . وهنا نتبيّن إبراهيم عليه السّلام يطرح فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة على قومه سؤالاً فى هذا المعنى : ﴿ فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ أيّ الفريقين أحقّ بالأمن والطّمأنينة والسّلامة فى الأولى والآخرة ، فريق المؤمنين الموحّدين المتّقين الّذى يمثّله إبراهيم عليه السّلام أو فريق الكافرين المشركين الملحدين الّذى يمثّله والد إبراهيم عليه السّلام وقومه . إنّ المطلوب من المشركين أن يقدّموا الجواب الصّحيح على هذا السّؤال إن كان عندهم علمٌ صحيحٌ ومعرفةٌ نافعة . إنّ كلّ عاقلٍ ينتهى إلى أنّ الّذى يفرد الله تعالى الواحد القدير العليم بالعبادة هو الأحقّ بالأمن من الخوف . وإذا كان إبراهيم عليه السّلام قد ألقى سؤاله الإنكاريّ الّذى لا يختلف اثنان من العقلاء على الجواب عليه باستثناء

قومه الخَصِمين اللّدودين الّذين عطّلوا عقولهم ، فإنّ ربّ العزّة هو الّذى يجيب فى الكتاب العزيز على السّؤال الّذى لقّنه جلّ وعلا إبراهيم عليه السّلام وأجراه على لسانه وذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٢)

قال تعالى : ﴿ الّذين آمنوا و لم يَلْبِسوا إيمانهم بظُلْمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

الآية الكريمة بمثابة فصل الخطاب والحكم من ربّ العباد . إنّ ربّ العزّة هو الّذى يبيّن أنّ الّذين آمنوا بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم و لم يخلطوا إسلامهم بشرك أولئك لهم الأمن من العذاب فى الآخرة والأمان والسّلامة والطّمأنينة . وأولئك هم المهتدون فى الأولى الّذين يسيرون على الصّراط المستقيم المؤدّى بإذن الله تعالى إلى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء فى القرآن الكريم النّصّ على أنّ الظّلم هو الشّرك . قال تعالى[1] : ﴿ وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يَعِظُهُ يا بُنَيّ لا تُشْرِك بالله إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وحينما لا يكون ثمّة ظلمٌ يكون ثمّة عدل . وحينما لا يكون ثمّة شركٌ يكون ثمّة توحيدٌ وإفرادٌ لله تعالى بالعبادة وإسلامٌ صحيحٌ وإيمانٌ كامل .

ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة الّتى يكون فيها الجواب الصّحيح على سؤال إبراهيم عليه السّلام فى ضوء موقفه الصّحيح من قضيّة التّوحيد هذه الآية الكريمة مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى بإبراهيم عليه السّلام الكثير بالله تعالى وهو الّذى يقف وحده أمام قوى الشّرك والشّرّ . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من مثل

---

(١) سورة لقمان ١٣ .

قوله تعالى[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وإنّ هذه الرّحمة من البرّ الرّحيم لتتأكّد فى الآية الكريمة التّالية الّتى تصرّح بالعون من الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام والتّأييد ، التّوجيه والتّسديد . فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٣)

قال تعالى : ﴿ وتلك حُجّتُنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ مَنْ نشاء . إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾ .

الآية الكريمة تشير إلى فضل الله تعالى العظيم على إبراهيم عليه السّلام ، وهي تذكّرنا بآيةٍ كريمةٍ فى سورة يوسف عليه السّلام تشير إلى فضل الله تعالى العظيم على يوسف عليه السّلام ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام . وهذا الفضل العظيم من الله تعالى على يوسف عليه السّلام يتجلّى فى إلهام الله تعالى نبيّه يوسف عليه السّلام أن يسأل إخوته الّذين قدموا من الشّام إلى مصر من أجل الميرة ولم يعرفوا أنّه أخوهم الّذى ألقوا به فى غيابة الجبّ والّذى اصبح بفضل الله تعالى عزيز مصر ، أن يسأل إخوته عن نوع الحكم الّذى يرتضونه إن ثبت أنّ سارق صواع الملك واحدٌ منهم . أيرتضون الحكم فى شريعة إبراهيم عليه السّلام باسترقاق السّارق مدّة عام أم الحكم المصريّ الوضعيّ الّذى يكتفى بتغريم السّارق ضعفي ما سرق . إنّ كلّ ما قام به يوسف عليه السّلام من وضعٍ للصّواع فى رحل شقيقه بنيامين إلى استخراج الصّواع من رحله وسكوت بنيامين شقيق يوسف دليل الاعتراف بالسّرقة لا يكفى لتحقيق رغبة يوسف ، بإلهامٍ من الله تعالى ، فى استبقاء شقيقه بنيامين معه فى مصر ، لأنّ أهمّ ما فى القضيّة رضا الإخوة بحكم السّارق فى الشّريعة الإبراهيميّة واختيارهم هذا النّوع من الحكم الّذى يطبّق فى الشّام وليس فى

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

مصر . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى ألهم نبيّه ورسوله يوسف عليه السّلام أن يسأل إخوته عن نوع الحكم الّذى يختارون . وبعلمٍ من الله تعالى وإرادة اختار الإخوة حكم السّارق فى الشّريعة الإبراهيميّة وليس الحكم فى القانون المصريّ الوضعيّ . وحول هذه المعاني جاء فى سورة يوسف[1] قوله تعالى : ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثمّ استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كِدْنا لِيوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلاّ أن يشاء الله . نرفع درجاتٍ من نشاء . وفوق كلّ ذى علمٍ عليم ﴾ ومن البيّن وجه الشّبه بين الآيتين الكريمتين فى القول : ﴿ نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ ومن البيّن كذلك أنّ آية سورة يوسف عليه السّلام اكتفت بالإشارة إلى علم الله تعالى المحيط ، وقد غاب عن يوسف عليه السّلام النّبيّ الكريم والرّسول العظيم هذا النّوع من العلم ، فى حين جمعت آية سورة الأنعام بين الحكمة والعلم .

تشير الآية الكريمة إلى الحجّة الّتى آتاها الله تعالى إبراهيم عليه السّلام على قومه : ﴿ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وذلك فى مقابل محاجّة قوم إبراهيم عليه السّلام له وإنكاره عليهم تلك المحاجّة على نحو ما جاء من ذى قبل فى هذا القسم : ﴿ وحاجّه قومه . قال أتحاجّونّى فى الله وقد هدان ﴾ إنّ قوم إبراهيم عليه السّلام يدافعون بحرارةٍ عن باطلهم وكأنّ لديهم الحجج البالغة والأدلّة الدّامغة . وإنّ إبراهيم عليه السّلام يؤكّد للقوم أنّ حججهم داحضة وأدلّتهم باطلة . ولمّا كان إبراهيم عليه السّلام يجاهد فيه جلّ وعلا وكان ربّ العزّة وعد ، ووعده الحقّ ، بأنّه جلّ وعلا سيهدى الذين يجاهدون فيه سُبُلَه جلّ وعلا فقد آتى الله سبحانه وتعالى منّاً منه وفضلاً ، إبراهيم عليه السّلام حجّته جلّ وعلا الدّامغة . وانظر إلى نون العظمة العائدة إلى الذّات العليّة ، وجملة آتينا الّتى تستعمل فى القرآن تنبيهًا على محض الفضل من الله تعالى دون بذل أيّ مجهودٍ من عبد الله تعالى ، وإلى حرف الجرّ

---

(١) الآية ٧٦ .

الدّالّ على استعلاء إبراهيم عليه السّلام بعونٍ من الله تعالى وفضلٍ على قومه ، وذلك فى القول : ﴿ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وينبغى أن يكون لاسم الإشارة الدّالّ على البعد ورفيع المنزلة : ﴿ تلك ﴾ دوره فى التّنبيه إلى تلك النّعم المتتابعة من الله تعالى المنعم المتفضّل على عبده الّذى يجاهد فيه جلّ وعلا وعلى خليله المجتبى إبراهيم عليه السّلام . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى ألهم إبراهيم عليه السّلام تلك الحجّة القوليّة ، وما أعظمها ، وهو جلّ وعلا الّذى ألهم إبراهيم عليه السّلام تلك الحجّة الفعليّة المتعلّقة بالكوكب والقمر والشّمس ، وما أروع تلك الحجّة وما أبلغها .

ومن البيّن أنّ الحجّة الّتى آتاها الله تعالى إبراهيم عليه السّلام تجاوزت الصّواب الّذى أجراه الله تعالى على قوله وفعله إلى القول الفصل تأييدًا لإبراهيم عليه السّلام، والحكمة البالغة والحجّة الدّامغة القائلة صراحةً بخطأ القوم الصّريح ، وذلك فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ الّذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ وقد عرفنا أنّ فى هذه الآية الكريمة شهادةً من الرّحمن بإيمان إبراهيم عليه السّلام وبراءته من الشّرك ، وشهادةً ضدّ قومه بالكفر وبارتكاب أكبر ذنبٍ ، ألا هو الإشراك مع الله تعالى سواه .

وعلى غرار تنبيه آية سورة يوسف عليه السّلام إلى فضل الله تعالى على يوسف عليه السّلام بإلهامه أن يسأل إخوته عن نوع الحكم الّذى يرتضونه لو ثبت أنّ آخذ الصّواع واحدٌ منهم لأنّ يوسف عليه السّلام لا يستطيع أن يستبقي شقيقه بنيامين عنده وإن استخرج الصّواع من رحله وإن سكت بنيامين ــ بالاتّفاق مع يوسف عزيز مصر ــ عن الاتّهام بالسّرقة وذلك فى القول : ﴿ نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ على غرار ذلك التّنبيه يجىء التّنبيه ذاته هنا فى القول ذاته : ﴿ نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ .

لقد جاء فى سورة الأنعام الكريمة[١] هذه القول : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وإنّ ربّ العزّة الّذى يرفع درجات من يشاء من عباده . وأيّ درجةٍ وراء نعمة الرّسالة الّتى أنعم الله تعالى بها وتفضّل بها على إبراهيم عليه السّلام ، بل إنّه أبو الأنبياء ، فكلّ الأنبياء من بعده هم من ذرّيته عليه الصّلاة والسّلام ، ثمّ إنّه أحد أولى العزم من الرّسل الخمسة وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدّ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

ولمّا كان الحديث عن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وما صادفه من قومه المشركين من أهدافه تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والتّسرية عنه فإنّ الآية الكريمة تختم بالقول : ﴿ إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾ ومعروفٌ أنّ الخطاب وراء ذلك يتّجه إلى كلّ فردٍ من أفراد هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين . لقد كان حديث الآيات الكريمات يدور حول الحكمة والعلم ، وقد آتى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام منهما نصيبًا موفورًا ، فها هو ذا عليه السّلام يؤتيه الله تعالى الحكمة المنبعثة عن نور البصيرة وقد قال تعالى[٢] : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء . ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا ﴾ وها هو ذا عليه السّلام يؤتيه الله تعالى شيئًا من علم الفلك ويريه جلّ وعلا ملكوت السّماوات والأرض . إنّ ثمّة علمًا لدنّيًا ذا علاقةٍ بالدّنيا والدّين ، ومن الطّبيعيّ أن يفضي ذلك العلم اللّدنّيّ بإبراهيم عليه السّلام الّذى يجاهد فى الله تعالى حقّ الجهاد إلى مرتبة اليقين . وإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾ تشير إلى المصدر لكلّ من حكمة إبراهيم عليه السّلام وعلمه . إنّه ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وربّك أيّها المسلم لله ربّ العالمين ، مربّيك بنعمه الّتى لا تعدّ وآلائه الّتى لا تُحْصَى ، الحكيم الّذى يؤتى من لدنه من الحكمة من يشاء ، العليم الّذى يؤتى من لدنه من العلم من يشاء : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾[٣] ﴿ وفوق كلّ ذى علمٍ عليم ﴾[٤] : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا ﴾[٥] : ﴿ وقل ربّ زدنى علما ﴾[٦] .

---

(١) الآية ١٢٤ . (٢) سورة البقرة ٢٦٩ . (٣) سورة البقرة ٢٦٩ .
(٤) سورة يوسف ٧٦ . (٥) سورة الإسراء ٨٥ . (٦) سورة طه ١١٤

ما أعظم الحجّة الّتى آتاها الله تعالى إبراهيم عليه السّلام فرفعته بعيدًا وعاليًا على قومه : ﴿ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وهذا العلوّ والارتفاع قد أسلم إلى علوٍّ مستمرّ وارتفاعٍ متواصل فى القول بعد ذلك مباشرة : ﴿ نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ إنّه جلّ وعلا الحكيم العليم الّذى يفعل كلّ ذلك .

ونحن حينما نتبيّن أنّ إبراهيم عليه السّلام قد آتاه الله تعالى على الكبر إسماعيل وإسحاق نستطيع أن نفهم أنّ هذه الهبة من الله تعالى كانت بعد الجهد من إبراهيم عليه السّلام مع قومه والتّعب الأكيد . وإلى كبر سنّه عليه السّلام حينما وهبه الله تعالى إسماعيل وإسحاق أشارت الآية الكريمة على لسانه عليه السّلام من سورة إبراهيم[1] قال تعالى : ﴿ الحمد لله الّذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق . إنّ ربّي لسميع الدّعاء ﴾ وإلى منح الله تعالى إبراهيم عليه السّلام إسحاق عليه السّلام وابنه يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام فى حياة إبراهيم عليه السّلام أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٤)

قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا . ونوحًا هدينا من قبل . ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن كلٍّ من إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء ، وعن نوحٍ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى والأب الثّانى للبشريّة وعن بعض المصطفين الأخيار من ذرّيّة هذين الرّسولين الكريم . وفى هذا المعنى جاء فى سورة الحديد[2] قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذرّيّتهما النّبوّة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ .

---

(١) الآية ٣٩ . (٢) الآية ٢٦ .

لقد كان كفاح كلٍّ من إبراهيم ونوحٍ عليهما السّلام مريرا وجهادهما كبيرًا . وقد نصّ القرآن الكريم على الألف سنةٍ إلاّ خمسين عامًا الّتى قضاها نوحٌ عليه السّلام وهو يدعو قومه . قال تعالى[١] : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلاّ خمسين عامًا فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون ﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى جعله الله تعالى للنّاس إمامًا يأتمّون به فى مجال الدّين بعد أن ابتلاه الله تعالى بالكلمات واختبره بالتّكاليف ونجح فى الامتحان ، ونستطيع أن نفهم أنّه ظلّ يدعو قومه الكثير من السّنوات حتّى بلغ من العمر عِتِيًّا وفى هذه السّنّ الّتى عاد فيها شيخًا وزوجه عجوزًا وهبه الله تعالى من هاجَرَ ابنه إسماعيل عليه السّلام ، ومن سارّةَ ابنة إسحاق عليه السّلام . وإلى هبة الله تعالى إبراهيم عليه السّلام كلاًّ من إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام أشارت الآية الكريمة من سورة إبراهيم عليه السّلام . قال تعالى[٢] : ﴿ الحمد لله الّذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق . إنّ ربّي لسميع الدّعاء ﴾ علمًا بأنّ إبراهيم عليه السّلام هو الّذى آتاه الله تعالى رشده قبل سنّ البلوغ . وإلى هذا النّوع من الهبة أشار قوله تعالى[٣] : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين ﴾ والمعروف أنّ جملة آتى تستعمل فى القرآن الكريم بقصد التّنبيه إلى الفضل من الله تعالى الّذى تجلّى فى إيتاء الله تعالى العبد ما لا يد للعبد فى الحصول عليه من نعم الله تعالى . ونستطيع أن نفهم أنّ إبراهيم عليه السّلام قد أخذ يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى منذ أن آتاه الله تعالى رشده . وقد أشارت آيات القسم إلى بعض ما صادفه عليه الصّلاة والسّلام فى دعوته قومه إلى الله تعالى من عَنَتٍ ومشقّة . وقد ظلّ عليه الصّلاة والسّلام يدعو قومه حتّى اعتزلهم وما يعبدون من دون الله تعالى فآتاه الله تعالى إسماعيل وإسحاق وجعل كلاًّ منهما نبيًّا . وقد أشارت سورة مريم إلى جوانب من الحوار بين إبراهيم عليه السّلام وبين أبيه وقومه ، وقد تحوّل الحوار ساخنًا فهجرًا

---

(١) سورة العنكبوت ١٤ . (٢) سورة إبراهيم ٣٩ . (٣) سورة الأنبياء ٥١ .

جميلاً من قِبَل إبراهيم عليه السّلام وهجرًا غير جميل من آزر وقومه . قال تعالى[١] : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقًا نبيّا . إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنّى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتّبعنى أهدك صراطًا سويّا . يا أبت لا تعبد الشّيطان إنّ الشّيطان كان للرّحمن عصيّا . يا أبت إنّى أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرّحمن فتكون للشّيطان وليّا. قال أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم . لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرنى مليّا . قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بى حفيّا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّى عسى ألاّ أكون بدعاء ربّى شقيّا . فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاًّ جعلنا نبيّا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ عليّا ﴾ وقد أشارت سورة هود إلى البشارة بإسحاق ويعقوب عليهما الصّلاة والسّلام . قال تعالى[٢] : ﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيم بالبُشْرَى قالوا سلامًا قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ . فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليه نَكِرَهم وأوجس منهم خِيفةً قالوا لا تَخَفْ إنّا أُرْسِلْنا إلى قوم لوط . وامرأتُهُ قائمةٌ فَضَحِكَتْ فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا وَيْلَتَى أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلى شيخًا . إنّ هذا لشيءٌ عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميدٌ مجيد ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أشارت إلى هداية الله تعالى إسحاق ويعقوب فى القول : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ﴾ فالحقيقة أنّ الهداية بلغت مرحلة الإنعام على كلٍّ منهما بدرجة النّبوّة ، وهي محض فضلٍ من الله تعالى ، فقد جاء فى سورة مريم[٣] قوله تعالى : ﴿ فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاًّ جعلنا نبيّا ﴾ .

وبشأن نوحٍ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى إلى عباده يجىء القول : ﴿ ونوحًا

---

(١) سورة مريم ٤١ — ٥٠ . (٢) سورة هود ٦٩ — ٧٣ . (٣) الآية ٤٩ .

هدينا من قبل ﴾ وكأنّ الآية الكريمة بعد حديثها الموصول بسابقه عن إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء تحوّلت إلى الوراء زمنًا فتحدّثت عن نوحٍ عليه السّلام الأب الثّانى للبشريّة ، ثمّ تحدّثت عن بعض ذرّيّة نوحٍ عليه السّلام من كوكبة النّبيّين المصطَفَيْن الأخيار ، وهم فى حكم الإخوة لعَلّات ، أي من أمّهاتٍ شتّى ، كما نصّ على ذلك الحديث النّبويّ الشّريف . وهذا الحديث وفق النّسق المذكور نبّهت عليه آيةٌ كريمةٌ تالية ، وذلك فى القول : ﴿ ومن آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم ﴾ وقد تحدّث العديد من سور القرآن الكريم عن نوحٍ عليه السّلام وعن معاناته مع قومه الّذين ظلّ يدعوهم إلى الله تعالى ألف سنةٍ إلاّ خمسين عامًا . وقد علم بإيحاءٍ من الله تعالى أنّه لن يؤمن من قومه عليه الصّلاة والسّلام إلاّ من قد آمن على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة هود ، فدعا عليهم على نحو ما جاء فى سورة نوحٍ الّتى تحمل اسمه عليه الصّلاة والسّلام . قال تعالى[1] : ﴿ وقال نوحٌ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا . إنّك إن تذرهم يُضِلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجرًا كفّارا ﴾ فأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السّلام بعمل السّفينة حتّى إذا جاء أمر الله تعالى بإغراق القوم وفار التّنور حيث يُخبَز الخبز ونبع منه الماء حمل نوحٌ عليه السّلام معه فى السّفينة بأمرٍ من الله تعالى من كلٍّ زوجين اثنين . وبإرادة الله تعالى نجا المؤمنون القليل مع نوحٍ عليه السّلام فى السّفينة وغرق الكافرون . ومن سور القرآن الكريم الّتى أفاضت فى الحديث عن هذه المسألة سورة هود[2] وقد ختم الحديث عن نوحٍ عليه السّلام بالقول[3] : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممّن معك . وأممٌ سنمتّعهم ثمّ يمسّهم منّا عذابٌ أليم ﴾ والمعروف أنّ ربّ العزّة جعل فى ذرّيّة هذين النّبيّين الكريمين نوحٍ وإبراهيم النّبوّة والكتب السّماويّة . وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى[4] : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذرّيّتهما النّبوّة والكتاب ، فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾.

---

(١) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة هود ٢٥ ـ ٤٨ .
(٣) سورة هود ٤٨ .
(٤) سورة الحديد ٢٦ .

وبشأن الضّمير فى القول : ﴿ ومن ذرّيّته ﴾ يصحّ أن يعود إلى كلٍّ من إبراهيم ونوحٍ عليهما السّلام ، ويرجح عودة الضّمير إلى نوحٍ عليه السّلام لسببين اثنين . السّبب الأوّل هو أنّ نوحًا عليه السّلام أقرب مذكور ، والسّبب الثّانى هو أنّ كلّ الذّرّية المذكورة من سلالة نوحٍ عليه السّلام وليس الأمر كذلك بشأن إبراهيم عليه السّلام ، فإنّ لوطًا عليه السّلام ابن أخى إبراهيم عليه السّلام أو ابن أخته .

وتذكر الآية الكريمة ستّةً من هذه الذّرّيّة الطّاهرة وتصفها بأنّها محسنة . قال تعالى: ﴿ ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين ﴾ وبشأن الإحسان نحن نتذكّر بهذه المناسبة تعريف المصطفى ﷺ له حينما سئل عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] والمعروف أنّ هؤلاء المصطفين الأخيار يشتركون فى نعمة النّبوّة الّتى هي محض فضلٍ من الله تعالى ثمّ يتمايز بعضهم ، بفضل الله تعالى ، ببعض الخصائص . وقد أشارت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[2] إلى هذا التّفضيل من الله تعالى . قال تعالى : ﴿ تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض . منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس . ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد ﴾ .

ووراء ذلك فالصّفات المشتركة بين النّبيّين هي الأكثر ، ومن هذه الصّفات الإحسان الّذى أشارت إليه هذه الآية الكريمة ، والصّلاح الّذى أشارت إليه الآية الكريمة الثّانية ، والتّفضيل المطلق على العالمين الّذى أشارت إليه الآية الكريمة التّالية .

وبشأن النّبيّين السّتّة الكرام الّذين ذكرتهم الآية الكريمة ، داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السّلام نتبيّن أنّ النّبيّين الكريمين الأوّلين ، داود وسليمان ، متلازمان ، وكذلك الحال بشأن النّبيّين الكريمين الأخيرين ، موسى وهارون .

---

(١) صحيح البخاريّ ١/ ٢٠ .

(٢) الآية ٢٥٣ .

إنّ داود وابنه سليمان عليهما السّلام قد آتاهما الله تعالى علمًا لدنّيًا منه جلّ وعلا . قال تعالى[١] : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علمًا وقالا الحمد لله الّذى فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ وبالإضافة إلى العلم اللّدنّيّ وهب الله تعالى داود وسليمان عليهما السّلام الحكم بمعنى النّبوّة[٢] والحكمة والإصابة فى الأقوال والأفعال والأحكام . قال تعالى : [٣] ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين . ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا. وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطّير . وكنّا فاعلين ﴾ ومعنى : ﴿ إذ نفَشَتْ فيه غنم القوم ﴾ حين دخلت فى هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً[٤] قال الزّهريّ : النّفش لا يكون إلاّ باللّيل والهَمَل بالنّهار[٥] .

وأيّوب عليه السّلام هو الّذى أثنى الله تعالى عليه بسبب صبره على البلاء . وممّا جاء فى ابتلاء الله تعالى له وصبره قوله تعالى[٦] : ﴿ واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّى مسّنى الشّيطان بنُصْبٍ وعذاب . اُرْكُضْ برِجْلك هذا مغتَسَلٌ باردٌ وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضِغْثًا فاضرب به ولا تحنث . إنّا وجدناه صابرًا . نِعْمَ العبد إنّه أوّاب ﴾ .

ويوسف عليه السّلام هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام . وسورة يوسف عليه السّلام المكّيّة تتحدّث فى قصّته مع إخوته لأبيه يعقوب عليه السّلام وحسد الإخوة له عليه السّلام ولشقيقه بنيامين وصبره عليه السّلام واحتسابه وصبر يعقوب عليه السّلام واحتسابه . واللّطيف أنّ سورة يوسف خلعت عليه ﷺ صفة الإحسان بأكثر من غيرها من الصّفات ، وقد تبيّنّا أنّ هذه الآية الكريمة تختم بالقول : ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

---

(١) سورة النّمل ١٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٧ / ٣٨ .
(٣) سورة الأنبياء ٧٨ و٧٩ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٧/٣٨ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٧/٤٠ وانظر فقه اللّغة وسر العربيّة للثّعالبيّ ٣٧٥ .
(٦) سورة ص ٤١ ــ ٤٤ .

وعلى غرار الجمع فى القرآن عادةً بين داود وسليمان عليهما السّلام اللّذين ذكرتهما معًا الآية الكريمة أوّلاً ، ذكرت الآية الكريمة موسى وهارون عليهما السّلام معًا آخرًا وذلك على غرار الجمع فى القرآن الكريم كذلك عادةً بينهما : ﴿ وموسى وهارون ﴾ .

لقد أكرم الله تعالى موسى عليه السّلام بالنّبوّة فكان كبير أنبياء بنى إسرائيل ، وأكرمه بأن وهب له أخاه هارون نبيّاً كي يعين موسى عليه السّلام فى رسالته إلى فرعون طاغية مصر . وقد أشارت هذه الآيات الكريمات من سورة مريم بإيجاز إلى اصطفاء الله تعالى موسى عليه السّلام بالنّبوّة والكلام ومنحه أخاه هارون عليه السّلام نبيّا . قال تعالى[1] : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنّه كان مُخْلَصًا وكان رسولاً نبيًّا . وناديناه من جانب الطّور الأيمنِ وقرّبناه نجيّا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّا ﴾ وقد جاء فى سورة طه عن موسى عليه السّلام قوله تعالى[2] : ﴿ اِذهب إلى فرعون إنّه طغى . قال ربّ اشرح لى صدرى . ويسّر لى أمرى . واحلل عقدةً من لسانى . يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرًا من أهلى . هارون أخى . اُشْدُدْ به أزرى . وأشركه فى أمرى . كي نسبّحك كثيرًا . ونذكرك كثيرًا . إنّك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

وختمت الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ وقد عرفنا أنّ لهؤلاء المصطفين الأخيار الكثير من النّعوت ومنها الإحسان الّذى بيّن المصطفى ﷺ أنّ درجته تأتى بعد الإسلام والإيمان . وكأنّ هؤلاء المحسنين قد بلغوا درجة الإحسان فوهبهم الله تعالى من فضله درجتى النّبوّة والرّسالة أعلى درجتين يمكن أن يناهما عبدٌ من عباد الله تعالى المحسنين . والآية الكريمة التّالية تواصل ذكر فريقٍ من هؤلاء المصطفين الأخيار المحسنين الصّالحين فإلى .

---

(١) سورة مريم ٥١ - ٥٣ .

(٢) سورة طه ٢٤ - ٣٦ .